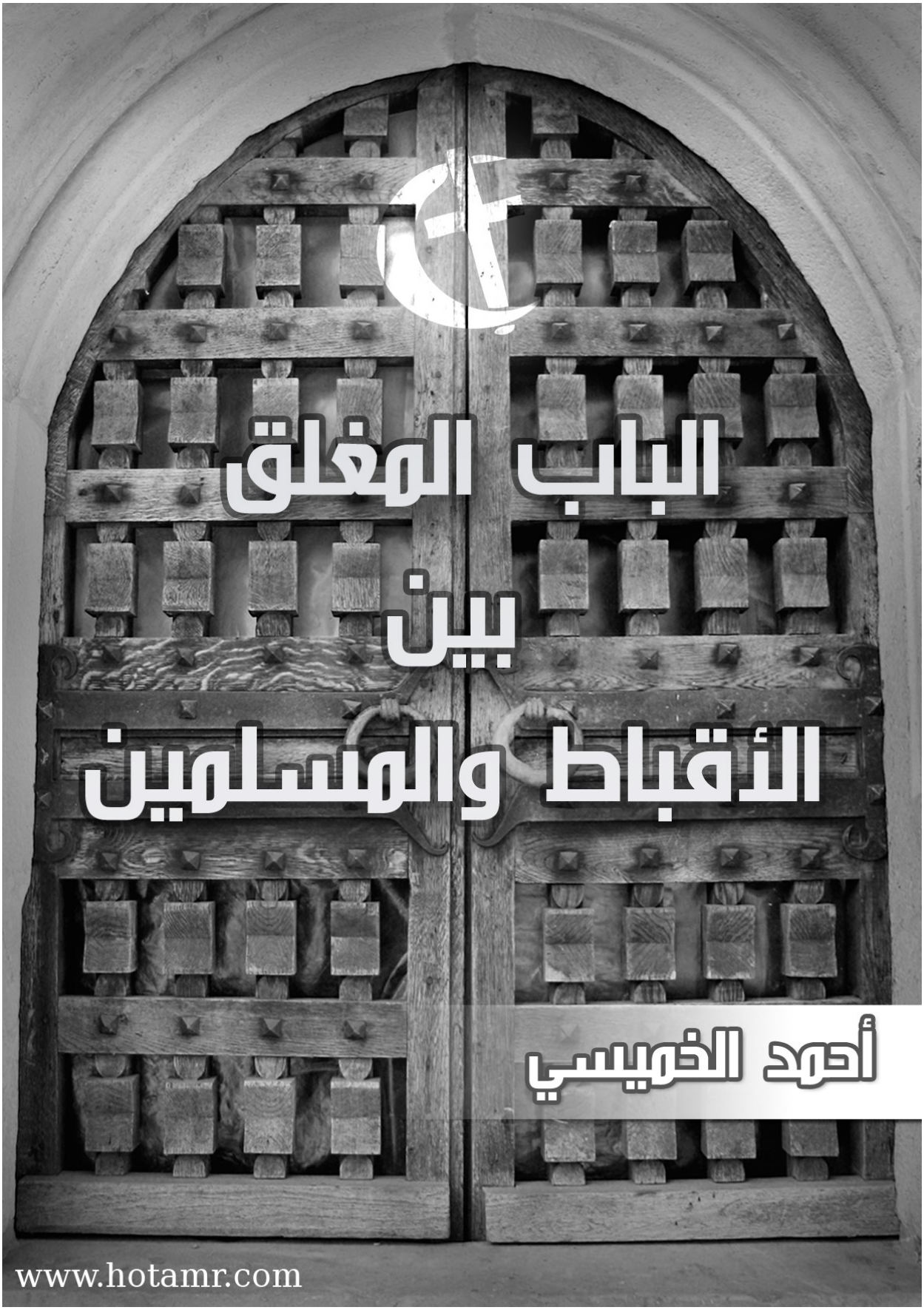

الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين

أحمد الخميسي

www.hotamr.com

كتاب الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين

أحمد الخميسي

مقتطفات من مقالات عن الكتاب :

-1-

علاء الديب

" الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين " كتاب جديد لقصاص وكاتب نادر ، جوهرة يصقلها العمل والإلتزام والاستقامة هو أحمد الخميسي ، الذي يبدأ كتابه هذا وكأنه مشروع قصصي في موضوع ساخن ، ثم يسير في تتابع يشمل 17 قطعة متصاعدة تجمع شتات ظاهرة الفتنة الطائفية أو الوحدة الوطنية أو الأحداث المؤسفة أو الواقع الاجتماعي والثقافي المختل باسم التدين الجديد الذي يحجب الوحدة والإبداع والسلام الاجتماعي والتقدم . كل هذا الموضوع الواسع المتشعب يقدمه أحمد الخميسي في شجاعة واختصار واقتصاد في رسمه وطرح جوانبه وتسجيل وقائعه والإشارة إلي الأعمال الأدبية التي تناولته .

-2-

أحمد بهاء شعبان

لا يدا فع «د. أحـ مد الخمير سي»، في كتا به «الباب المغلق بـ ين الأقباط والمسلمين »، عن أقباطها، كما قد يظن البعض، إنما يدافع، وفي الأساس، عن مصر، بمسلميها ومسيحييها : مصر التي لا تفرق بين أحد من بنيها، صاحبة الارث الأخلا قي والحضاري العظ يم، هذا الكتاب نداء للحياة في مواجهة الموت، وللسماحة في مواجهة «الطائفية " ، هو انحياز للنور في مواجهة الظلمة، ولروح الوطن التي تجا هد للانعتاق! وعلي تعداد ما قرأته في الآو نة الأخيرة من إبداعات فكر ية وأدبـ ية، أعترف بأن قـ صة «الباب المغلق» التي يفتتح بها الدكتور أحمد الخميسي كتابه " الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين " ، قد مست وجداني بشكل عز نظيره ، قرأتها أكثر من مرة، و في كل قراءة تتبدي لي أعماقها الدفينة، فتمنحني شجناً رفيفاً حتي لتكاد الدموع تطفر من مآقي ، وأنا أتصور حال الأستاذ موريس وزوجته مدام جاذ يت، في جـ هة باب شقته ما، والطفلة البائسة، اليائـ سة هدي في الجا نب الآ خر، و هم يبكون، هـ نا وهناك، علي طر في «الجدار العازل»،

والذي صنع من قساوة البشر، ومن غلاظة القلوب، ومن سوء فهم لسماحة الدين ونبله وسمو غاياته .

***

-3-

<u>محمود القرني</u>

بكتابه " الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين " يفتح الدكتور أحمد الخميسي بابا واسعا علي ريح عاتية، أرادته الأزمات المجتمعية والسياسية في مصر أن يكون مغلقا. لكن تلك الدعوة الحميمة أحيانا والجارحة أحيانا أخري التي يدفعها الخميسي للأمام تعني أن أزمة العلاقة بين الأقباط والمسلمين تستحق أكثر من القبلات الفارغة التي يتبادلها البابا وشيخ الأزهر والتي باتت لا تعني شيئا ، لقد قدم الخميسي كتابا فريدا في نبرته وتنوع خطابه ، فهو يتراوح بين الإنسان المغرق في الإنسانية ، والتنظيري المغرق في الوعي بجذور المشكلة .

***

" الباب المغلق بين الأقباط والمسلمين "

تأليف: أحمد الخميسي

إهداء

إلى ابنتي هانيا الخميسي.. وإلى نورا إبنة حسام حبشي.. الغاليتين عندي، مثل الغد، ومثل الأمس.

تقديم

هذا الكتاب مجموعة مقالات ترصد على مدى عشر سنوات تقريبا مظاهر الطائفية والتمييز الذي يهدد الوحدة الوطنية المصرية، وموقفي من ذلك، وفهمي لأسبابه. ولا أزعم أن تلك المقالات مساهمة نظرية أو فلسفية في موضوع العلاقة بين مسلمي مصر وأقباطها، وهو موضوع كتب فيه الكثير، لكن كل ما أردته أن أدفع مع الآخرين الباب المغلق ولو دفعة صغيرة عله ينفتح في الضمائر والنفوس.

أحمد الخميسي

القاهرة

باب مغلق

في شقة صغيرة بالطابق الأول من عمارة في حي الظاهر سكن الأستاذ موريس المحاسب في أحد البنوك مع زوجته مدام جاذيت التي تعمل في مدرسة تعليم لغات أجنبية . الإثنان تجاوزا سن الإنجاب دون أن ينجبا ، لكنهما قانعان بحياتهما التي تمضي في هدوء وتتخللها نزهات وزيارات يوم الإجازة . في العمارة محمود البواب الذي جاء من أسوان منذ زمن وعاش أسفل السلالم وحده مع ابنته الصغيرة هدى التي كانت تشتري للسكان وخاصة لمدام جاذيت الحاجات من المحلات الواقعة أمام العمارة . موريس وجانيت – المحرومان من الأولاد – أحسا بميل وبعطف على البنت الصغيرة التي لم تكن تطلب شيئا حين تعود إليهما من المحل وتكتفي بابتسامة واهنة، سعيدة بكل ما يعطى لها، سواء أكان ورقة نقدية أم نصف رغيف خبز بداخله قطعة لحم . في أوقات المغرب كان يحدث أن تأتي هدى بشاي أو خبز

للأستاذ موريس، وتكون الشقة خالية من الضيوف، فتقول لها مدام جانيت : اقعدي يا هدى استريحي وأنت طالعة نازلة طول النهار . فتجلس هدى فقط على حافة الفوتيه ، كأنها تخشى أن تجلس عليه كله، تبحلق في التلفزيون بصمت، فإذا قدمت لها مدام جانيت قطعة كيك صغيرة قضمت منها من دون أن ترفع بصرها عن الشاشة ، وتظل جالسة هكذا إلي أن تسمع صوت والدها ينادي عليها لأن أحد السكان في الطابق الثالث أو الرابع يطلب شيئا من المحلات ، حينئذ تقفز هدى ، وتهرول ، وتغمغم من عند الباب و هي تنصرف بكلمات شكر غير مفهومة . تغادر هدى الشقة فينسل لون ما من الجو ، ويحل شعور خفيف حزين في الصالة وعلي كسوة المقاعد، شعور بالوحدة والأسف، ويتفادى موريس وجانيت أن تتقاطع نظراتهما ، إلي أن ينطق هو ورأسه فوق الجريدة بعبارة ما، ليس لها معنى خاص، و تؤكد هي على كلماته التي شردت عنها وعيناها سارحتان : طبعا . طبعا، ثم تنهض واقفة : أعمل لك شاي؟ . وينظر كل منهما إلي الآخر نظرة تنقل مزيجا من مشاعر العتاب والذنب والغفران ومن العرفان لأنهما مازالا معا ، ولأن أيا منهما لم يقل للآخر أبدا إن الحياة موحشة.

في يوم آخر تطرق هدى الباب ، وتجلس على حافة الفوتيه أمام التلفزيون تتفرج بفيلم كوميدي قديم، تأكل مما يقدم لها ، وفي تلك الأثناء تقيس عليها مدام جانيت فستانا قديما ضاق على نجوى بنت أختها ، وتفرح هدى ، وتنهض بعد ذلك وتساعد مدام جانيت في غسل الصحون ، ثم تنام على الكنبة في الصالة حتى الصباح . أبوها لم يجد مشكلة في بياتها المتكرر، فشقة موريس وجانيت قريبة منه في الطابق الأول بجوار السلم ، والأستاذ موريس رجل طيب وكبير في السن .

كل يوم أربعاء يتجه أبو هدى إلي مستشفى قصر العيني لغسيل كليته، ويعود منهكا أصفر الوجه يرقد على فرشته وهدى تناوله الماء والخبز، هكذا رجع هذه المرة ، لكنه اليوم بعد أن رقد ساعتين يئن تحت السلم فارق الحياة. وانتبه سكان العمارة إلي أنهم لا يعرفون لمحمود البواب لا عنوانا ولا أقاربا ، ولم يكن يذكرهم بأصله سوى أبناء بلدته العابرين، الذين كانوا يظهرون بحثا عن عمل ، فيشربون معه كوب شاي على الدكة أمام مدخل العمارة ويستمعون لنصائحه ثم يرحلون. الحاج شفيق قام بجمع تبرعات من سكان العمارة وتولى مع الأستاذ موريس إجراءات الدفن. في المغرب ظلت هدى واقفة تشبثت قبضتاها الصغيرتان بالسور الحديدي لسلم العمارة، رأسها مدلى تنظر إلي الفرشة التي كان ينام عليها أبوها تحت وتبكي ، ومدام جانيت تواسيها وتجذبها لتدخل الشقة ثم تيأس منها فتتركها وتعود إليها بعد ساعة إلي أن وجدتها نائمة تقريبا و قد أسندت خدها إلي حديد السور فسحبتها من يدها إلي الداخل . بقيت هدى في الشقة ، وموريس وجانيت يطيبان خاطرها كل يوم بالكلمات وقطع الحلوى حتى كفت عن البكاء من الخارج، وبدأت تختلس النظر إلي لقطات من أفلام التلفزيون و هي تمسح

أنفها في كمها. وحين صارت إقامة هدى عند الأستاذ موريس أمرا مسلما به ، اشترت لها مدام جانيت من ممر الراعي الصالح فستانا وحذاء جديدين، وبدأت تخرج معها وتمسك بيدها بحرص وهما تعبران الشارع، وبعد فترة أخذت جانيت تفكر في وضع سرير لها في الحجرة الصغيرة ، وحين مضى على وجودها شهر كامل قالت جانيت لموريس بحنان : إيه رأيك لو دخلنا هدى مدرسة قريبة ؟ .

مساء ذلك اليوم عرج موريس على صيدلية بركات المجاورة ليشتري علبة أنسولين، فغمزه د . مصطفى الصيدلي وهو يفتش عن الدواء بسؤال عابر : أخبار البنت هدى إيه يا أستاذ موريس؟ مش الحمد لله بخير؟ . ولم يتوقف موريس عند السؤال طويلا ، وأجاب : الحمد لله . مساء ذلك اليوم عرج موريس على صيدلية بركات المجاورة ليشتري علبة أنسولين، فغمزه د . مصطفى الصيدلي وهو يفتش عن الدواء بسؤال عابر : أخبار البنت هدى إيه يا أستاذ موريس؟ مش الحمد لله بخير؟ . ولم يتوقف موريس عند السؤال طويلا ، وأجاب : الحمد لله . ماشي الحال . وبعد يومين وجه الحاج عصفور صاحب محل العطارة السؤال ذاته إلي موريس لكن بنظرة ثقيلة باردة جعلت موريس يتساءل : إيه الحكاية؟. شخص ما نكش في الشارع موضوع هدى قائلا " موريس أخذ البنت الصغيرة في بيته وح يخليها نصرانية ، ح يربيها على طريقتهم!"، وتواثب الكلام من محل المكوجي إلي صاحب المخبز ومن دكان العصير إلي المقهى ومن بائعة اللبن إلي البيوت. في نهاية الأسبوع سدد الجزار وهو يقطع فخذا بالساطور نظرة عداوة إلي موريس وطرح عليه السؤال بنبرة أقرب إلي المساءلة منها إلي التساؤل . هذه المرة أدرك موريس المقصود بالكلام، فبهت وتلجلج قائلا " الحمد لله" وأسرع منصرفا. في اليوم التالي قرر أن يستشير لطفي صديقه وزميله في البنك ، فنصحه على الفور بطرد البنت قائلا "بقاؤها عندك ممكن يعمل لك مشكلة في الشارع والمنطقة كلها" . جزع موريس من الكلمة " أطردها إزاي ؟ دي طفلة ؟ ومالهاش حد ؟ " . فرد عليه لطفي " سرحها ، شوف لها حد غيرك تقعد عنده " . بسط موريس كفيه بحيرة متألما " لكن البنت بتحبنا أنا وجانيت ومستريحة معانا،كمان احنا.. " . قاطعه لطفي بحزم " سيبك من حكاية الحب والراحة دي ، المسألة أكبر من كده يا موريس".
في طريق عودته أحس موريس أن حجرا ثقيلا يهوي بقلبه فرفع بصره إلي السماء الغائمة بنظرة عتاب ورجاء ، وما أن دخل إلي الشارع حتى شعر بالأعين تلاحقه في صمت ، تترقب قراره ، وتحثه عليه ، وعندما اقترب من محل الجزار خرج له صبيه ودفعه في كتفه كأنما بشكل غير مقصود وتابع سيره ، وألقى الجزار عليه نظرة قاسية وهو يرفع الساطور ويمزق به اللحم والعظم .

جلس موريس في الصالة يسأل نفسه كيف يطرد طفلة صغيرة بلا أهل ولا سند، إلي الضياع ؟ وماذا يقول لجانيت ؟ وللبنت ؟ .

في الأيام التالية أخذ دوي كلمات الغمز واللمز من الشارع يصك أذنيه بقوة أشد، وتذكر كلام لطفي ، فحكى لجانيت كل شيء . استمعت إليه جانيت واقفة بوجه مخطوف باهت ولم تقل كلمة ، جلست على حافة السرير وبكت طويلا بصوت مكتوم ، ثم نهضت و هي تجفف عينيها بيد ها واتجهت إلي المطبخ . نادى موريس هدى فأسرعت إليه " نعم يا عم موريس " ووقفت أمامه منتظرة في فستان أوسع وأطول مقاسا . مط شفته السفلى ، وشبك أصابع يديه ولم يجد ما يقوله للبنت الصامتة . أخيرا استجمع موريس شجاعته وشرح لها بقدر ما يمكن لطفلة أن تفهم أن عليها أن تغادر الشقة . البنت الصغيرة في الفستان الأوسع والأطول مقاسا عليها بكت ومع أنها لم تظهر من قبل عنادا أو تشبثا بشيء إلا أنها هزت رأسها بنفي " لاء ". وأعاد موريس ماقاله بكلمات أخرى فاستغربته :" حأمشي فين ؟ أنا ما أعرفش حد ، ومدام جانيت قالت لي حأرتب لك الأوضة الجوانية ؟" وحسما للوضع هرولت إلي جانيت في المطبخ " الحقي ..عم موريس بيقول لي أمشي !". وأشاحت جانيت بوجه متصلب كأنها لم تسمعها متشاغلة بدعك الأطباق بقوة .

في اليوم الثاني ، والثالث ، والرابع ، كرر موريس لهدى ما قاله من قبل ، وأوضح لها إنه يحبها مثل ابنته بالضبط ، بل هي ابنته ، لكن هدى لم تعد تعير كلماته أي اهتمام . تسمع ما يقوله وتهز رأسها بنفي وتنصرف إلي الصالة تراجع ما علمته إياها مدام جانيت من حروف الكتابة أو تتفرج على التلفزيون. مرة بعد مرة، وأخيرا لم يجد موريس بدا من جذبها بقوة من ذراعها وجرجرتها خارج باب الشقة .

البنت ملتصقة بالباب المغلق ، تخمشه من خارج الشقة كالقطة وتبكي : أنا زعلتك في حاجة ؟ والنبي دخلني . دخلني والنبي يا عم موريس. وفرت دموع موريس وراء الباب المغلق يقول : ما أقدرش يا بنتي .. والعدرا ما أقدر . والنبي ، والعدرا ، والنبي ، والباب مغلق خلف كل ناحية شخص وحيد في أمس الحاجة للآخر .

•••

23 يوليو 2007

سعاد التي في خاطري

سعاد التي في خاطري

17

كلما أثيرت بصورة أو بأخرى قضية إخواني المصريين من الأقباط يثب إلى عقلي وضميري وجه سعاد ونحن صغار بعينينها الخضراوين الساطعتين وهما تنظران إلى بلوم خفيف، ثم يتوارى وجهها لا أدري أين ولا إلى متى. وعادة فإن الزمن يتكفل بتمييع الخطوط المحددة لصور الوجوه في الذاكرة بحيث لا يعود يطفو منها سوى معناها، والانطباع العام الذي تركته. لكن وجه سعاد استثناء نادر تحدى كل السنوات وظل يثب إلى روحي مكتملا، واضح المعالم، مستديرا، وجميلا كالقمر. ربما لأن عهدي بها يرجع إلى طفولتي المبكرة، وربما لأنني كنت أحس أنها ستوغل في الغياب بعيدا عني، ومن ثم تشبثت بها ذاكرتي الطفلة إلى أقصى درجة. كان ذلك في شارع السروجي بالجيزة حيث كنا نقيم في طفولتنا مع جدي وجدتي في بيت من طابقين تعلو معه تكعيبة عنب أمام ترعة صغيرة تتدفق بهدوء. وكنا نخرج مع أولاد الشارع في شهور الصيف نتسابق في ماء الترعة ونلهو

بطرطشاته. حينذاك تعرفت إلى نصحي وسمير وإلى أختهما الصغرى سعاد. لم تكن تشاركنا متعة القفز إلى المياه، ولكنها كانت تجلس بعيدا قليلا عند حافة الترعة حتى ننتهي من ذلك فتجري معنا في حقول خضراء وراء الترعة، صارت كلها عمائر الآن. تلك كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها وجها بهذا الجمال، وعينين خضراوين بهذا العمق والصفاء. كنت في نحو العاشرة، وكانت سعاد من سني تقريبا. هل يجوز القول إن القلب الصغير يخفق في هذه السن المبكرة؟ لا أدري، لكن شيئا ما كان يشدني إلى إدامة النظر لعينيها إذا صادفتها أمامي مباشرة، ولاشك أنها كانت تحس انجذابي إلىها، ولم نكن نفهم أو ندرك، أو نجرؤ على فهم هذه المشاعر، ولا المضي بها أبعد قليلا من الخط الذي يفصل طفولتنا عن صبانا المتفتح أمامنا. لا أنا , ولا سعاد، كنا قادرين على تحديد معنى الرعشة الغامضة الحلوة التي تجمعنا لأقل من لحظة في حقول مفتوحة تحت سماء الرب كأننا فاكهة تنضج على استحياء.

بيوت شارع السروجي الضيق كانت قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، وسكان كل بيت معروفين.

هذا بيت نوال وأحمد أولاد الضابط حمدي الصديق، وذاك بيت شريفة ثابت بنت المحامي، لا أدري من في الأولاد أشار ذات مرة إلى بيت سعاد وصبحي سعاد التي في خاطري

19

وسمير في غيابهم قائلا: بيت المسيحيين! حيرتني الكلمة، وجعلتني أشعر بأن ثمة شيئا ما، مجهولا، يميز أولئك الناس عنا، أو يميزنا عنهم. وحين رجعت إلى البيت،

سألت جدتي عن معنى الكلمة، فاكتفت بهزة رأس وهي ترتق سروالا قديما وقالت: نحن مسلمون وهم مسيحيون وخلاص! "نحن"، و"هم". وأسدلت تلك العبارة الغامضة ستارا بيني وبين سعاد، من هم؟ ومن نحن؟ وما الذي يميزنا عن بعضنا البعض؟. المؤكد أن هناك فارقا ما بيننا، لا تريد جدتي الخوض فيه، لكنه حاسم، وغامض، وأشبه بالقدر.

ولم تفارقني حتى الآن صورة سعاد، ولا نظرة عينيها، ولا البسطة النظيفة دائما المؤدية إلى بيتها، بل إني أرى عينيها الخضراوين تنظران إليّ الآن وأنا أكتب هذه الكلمات، أراهما بوضوح بذلك اللوم الخفيف الذي ينبض فيهما. فيما بعد، متأخرا، تعرفت إلى جذور القصة التي انتزعت مني سعاد، وظلت صورة ذلك البيت المعزول بإشارة على أنه

"بيت المسيحيين" تخز ضميري كلما أثيرت بصورة أو بأخرى قضايا إخواني المصريين من الأقباط. فيما بعد، متأخرا، أدركت أن أخطر ما يهدد الثقافة المصرية هو التفرقة التي نتشربها من طفولتنا، لأن المسلمين منا ينشئوون على ثقافة إسلامية فحسب -بالمعنى العام للثقافة- بينما ينشأ أقباط ومسلمون

20

معظم الأقباط بدورهم على ثقافة مسيحية فحسب، لا أحد يعلمنا منذ الطفولة أن تاريخ مصر وحدة لا تتجزأ، وأنه لا يمكن لمصري أن يلم بتاريخ بلده من دون أن يتعرف إلى هاتين الثقافتين، ومن دون أن يتشربها وجدانه، ومن ثم فإن التفرقة في التربية في الصغر، والطائفية في الكبر، عقاب يحل ليس فقط بالأقباط ولكن بالمسلمين أيضا لأنها تحرمهم من اكتمال شعورهم بالوطن. وفي المحصلة النهائية يصبح الوطن -عند هؤلاء وأولئك- بعين واحدة، ترى كنيسة فقط، أو ترى جامعا فقط، ولا ترى أن السماء التي تظلنا ترق للكل الابتهالات.

يوليو 1999

الأقباط

التعليم والإعلام

الأقباط التعليم والإعلام

23

نشرت صحيفة "النبأ" في 17 يونية 2001 بالبنط العريض قصة دجال مصري كان راهبا في دير المحرق بأسيوط واستغل مكانته لإقناع النساء بقدراته الخارقة على شفاء الأمراض وطرد العفاريت من الأبدان، وتمكن تحت ستار العلاج من إقامة علاقات عديدة بالنساء والتحرش ببعضهن. الحادثة ذاتها قديمة وقعت عام 1996 وفي حينه شرعت النيابة العامة في التحقيق فيها منذ أن ألقي القبض على الراهب، كما سارعت الكنيسة المصرية ب"شلح" صفة الراهب عن الدجال أي نزعها عنه. ولا تخرج القضية عن إطار قضايا الدجل الديني الكثيرة المشابهة، مثل موضوع الدجالة المدعوة "الشيخة نادية". لكن جريدة "النبأ" المصرية قررت فجأة أن تستخرج الحادثة القديمة من الملفات دون الإشارة إلى أن الكنيسة قد عزلت الراهب ونشرتها بشكل يلقي بظلال الشك على رجال الدين القبط والأديرة وخاصة دير المحرق في أسيوط الذي يتمتع بقداسة خاصة لأن العائلة المقدسة عاشت فيه ثمانمائة أقباط ومسلمون

24

يوم. وأثار النشر بهذه الطريقة غضب الكثيرين من الأقباط، وتجمع آلاف منهم في أسيوط وأمام مبنى الكاتدرائية في العباسية حيث مركز إقامة البابا ليعربوا عن استيائهم من استغلال حادثة فردية لتشويه صورة عامة. وتحركت الحكومة بسرعة فاستدعت رئيس تحرير الصحيفة الصفراء للتحقيق معه، كما أدان مجلس الشعب والمجلس الأعلى للصحافة ونقابة الصحفيين وهيئات أخرى مسلك الصحيفة.

وقد أثارت "النبأ" بنشرها الموضوع أربع قضايا هامة على الأقل، الأولى: تتعلق بمفهوم حرية الصحافة، والثانية: خاصة بتوقيت نشر الموضوع والجهة التي وقفت خلف ذلك وأمدت الصحيفة بصور من سجلات تحقيق رسمي وأهداف هذه الجهة من ذلك في ظل ظروف اجتماعية وسياسية محتقنة، والثالثة تخص: انحسار الفكر العلمي بشكل عام مما يسمح مرة للشيخة نادية ومرة للراهب السابق بالدجل والحديث عن طرد العفاريت من أبدان الناس وغير ذلك من خرافات العصور الوسطى التي مازالت تعشش في عقول البشر. والقضية الأخطر هي بلا شك قضية الطائفية التي اختفت مع أحداث "الكشح" لتعود إلى الاندفاع بقوة من جديد. وإذا كانت الهيئات الرسمية قد اتخذت

موقفا حازما لتطويق الفتنة، إلا أن منهج الحلول

الأقباط التعليم والإعلام

25

المؤقتة في كل مرة لا ينتزع الفتنة من جذورها. وفي اعتقادي أن نشر الثقافة خاصة العلمية على أوسع نطاق هو السبيل الوحيد لحماية الوحدة الوطنية. وفي ذلك المضمار فإن المدارس والجامعات ومعها وسائل الإعلام تظل هي الأدوات الرئيسية لنشر هذه الثقافة وصياغة الرأي العام وليس طبع كتب قليلة هنا وهناك.وقد حان الوقت لتقديم "الأقباط" وهم العنصر الثاني في الأمة بصورة واضحة في الثقافة والإعلام، لأننا نقوم بأكبر خدمة للطائفية حينما ننحي التاريخ القبطي عن مناهج التعليم، ونقوم بالتعتيم على حاضر الأقباط ومشكلاتهم، ومن ثم يصبح القبطي المصري موضوعا مجهولا محاطا بالغموض والإبهام لدى الطرف الآخر في الأمة المصرية، وكل موضوع مبهم قابل لأن يكون مادة للعداء، لأنه حينما تنعدم المعرفة فإن الخيال يندفع لتعويض غيابها بأوهام وصور مريضة عن الآخر. إن انقطاع المعرفة بالآخر، أو غيابها أصلا، يحيل الآخر إلى مادة مبهمة لا يمكن أن نألفها أو أن نقترب منها بفهم وحب. وإذا قرأنا كتب التاريخ التي تدرس في المدارس سنجد أنها في أفضل

الأحوال تشير إلى القبط باعتبارهم "دافعي الجزية والخراج"، كأنهم هبطوا من كوكب آخر لمجرد دفع الجزية والتحليق مرة أخرى. أما مناهج التعليم فإنها تضغط في ثلاث كلمات عصور كاملة هي أقباط ومسلمون

26

قطعة من لحم ودم الضمير المصري. ولو أننا مثلا قمنا في المدارس بتعليم الأطفال أن الكلمات: برسيم و إردب وكعك وقلة وتمساح وبلح وغيرها كلمات وصلت إلىنا من اللغة القبطية لأدرك كل طفل مصري أن بداخله قبطيا من التاريخ. أما في حياتنا الثقافية فإن الشخصية القبطية في الأعمال الفنية لا يزيد وجودها عن مجرد رمز فني باهت مهذب صامت يجتر انتماءه للوطن كأنه القدر ويقتصر دوره على عطاء ومشاركة مبذولين دون قيد أو شرط، وقلما تظهر لدينا أعمال فنية وروائية تتناول النسيج الثقافي والاجتماعي لحياة إخوتنا الأقباط وعاداتهم وتقاليدهم وحاضرهم ليصبحوا كائنات ملموسة ومألوفة للطرف الآخر. إن التعليم والإعلام حينما يطوقان بالصمت تاريخ وحاضر الأقباط يجعلونهم -وهم العنصر الثاني في الأمة- موضوعا مبهما في الوعي يصعب تصوره. وإذا كان ذلك النهج يشكل خطورة

على الوحدة الوطنية بالمعنى المباشر فإنه يشكل خطورة أخرى على الثقافة المصرية التي قد ترى وطنها بعين واحدة، فلا تدرك أبعاده ومساحاته الزمنية المترامية. إن حرمان المثقف المصري الذي نشأ نشأة مسلمة من التعرف على كافة أبعاد حياة وتاريخ الآخر يعني فعليا حرمان المثقف المصري -على الجانبين- من معرفة نصفه الآخر، أي

حرمانه من رؤية نفسه كاملة في واقع الأمر.

وإذا كانت الوحدة الوطنية مازالت u1602 قائمة بفضل قوة الضمير المصري فإن علينا ألا نرهق هذا الضمير بأعباء إضافية إذا أردنا ألا يفرك الأخوة على الجانبين أصابعهم متجنبين النظر في أعين بعضهم البعض تحت وطأة الشعور بالخجل لانتهاك أشياء عزيزة لم يكن ينبغي المساس بها.

يونيو 2001

الدين والأدب

تقدم يوسف رشاد بصفته باحثا وكاتبا

بشكوى إلى فضيلة رئيس لجنة الفتوى بالجيزة. وجاء فيها أن هناك: "ظاهرة خطيرة للغاية لأنها تمثل اعتداء صارخا على قدسية القرآن الكريم، فبعض الشعراء يأخذون آيات كاملة من القرآن ويقحمونها في شعرهم، كما فعل الدكتور صابر عبد الدايم في قصيدته المنفى داخل الوطن.. نرجو إبداء الرأي الشرعي". وردا على ذلك أفاد الشيخ الطلخاوي رئيس لجنة الفتوى والشيخ السرساوي عضو اللجنة بأن: "يراجع الرجل فيما قال فإن رجع فلله الحمد، وإلا خرج من دائرة الإسلام ويستتاب وإلا قتل حدا". أي أن الشيخين قد قدما فتوى بقتل الشاعر!

إن تكبيل الإبداع الفني، بدعوى أن الإبداع يشتمل على مساس بالقرآن الكريم أو النصوص الدينية عموما أمر يزداد انتشارا يوما بعد يوم حتى ليوشك أن يصبح ظاهرة. رغم أن علاقة الفن والأدب بالأديان قديمة. فقد وصف المؤرخ اليوناني أقباط ومسلمون

32

هيرودوت من نحو ألفين وخمسمائة عام الطقوس المسرحية التي شاهدها في مصر والتي "تصور آلام الإله أوزيريس" على حد قوله. وفي المسرح الحديث استلهم توفيق الحكيم قصة أهل الكهف من

القرآن الكريم وأعاد صياغتها في مسرحية، كما استعان فيما بعد بقصص أخرى من التوراة والقرآن الكريم في "سليمان الحكيم". هناك أيضا "الحسين شهيدا" للشرقاوي وغيرها. وسنجد أن الكثير من قصائد البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم يتضمن بطرق مختلفة عبارات ومقاطع دينية. إذن فإن العلاقة بين الأدب والدين علاقة قديمة من حيث المبدأ، ولم تجد اعتراضا.

وبينما اقتصر الأدباء والشعراء على استلهام فكرة أو قصة دينية، أو الاستشهاد بآية كريمة، دون ربط وثيق بين الإبداع والدين، فإن كبار دعاة ما يسمى بالأدب الإسلامي مثل سيد قطب وعبد الباسط عبد البدر ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير حين نادوا عمليا بربط الأدب بالإسلام بشكل كامل، ونشر ما أطلقوا عليه "الأدب الإسلامي". إذن لم يرفض أولئك الدعاة مبدأ العلاقة بين الأدب والدين بحد ذاته، بل ومضوا بذلك المبدأ إلى منتهاه في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، داعين لتأسيس أدب إسلامي، مستشهدين خلال ذلك بأن الرسول)صلعم(كان يحث حسان بن ثابت الدين والأدب

للدفاع عن الإسلام بشعره، معتبرين أن قصائد

الزهد والمتصوفة وغير ذلك أدب إسلامي. وبداهة فإن أولئك الدعاة لا يمكن أن يقفوا ضد استخدام هذه الآية أو تلك من القرآن الكريم، وعلى العكس فإن مثل تلك الأشكال من الاستعارة تؤكد شكل ومحتوى ذلك الأدب. وقد عرَّف أحدهم وهو نجيب الكيلاني الأدب الإسلامي بأنه: "تعبير فني جميل مؤثر، ينبع من ذات مؤمنة". والحكم على إيمان أو عدم إيمان أي إنسان مبدعا أو غير مبدع، أمر من شئون الخالق سبحانه وتعالى وحده، لأنه وحده الذي يعلم ما في الصدور. أما الحكم على التعبير الفني فيرجع إلى البشر. لكن فتوى الطلخاوي والسرساوي بمنطقة وعظ الجيزة جمعت بضربة واحدة بين شئون الدنيا والدين فحكمت بخروج النص فنيا وإقامة الحد دينيا. والسؤال هو: لمن تعود صلاحية الحكم على النص فنيا بحيث يمكن القول إن به خروجا أو تجريحا لمعنى مقدس؟ وهل يمكن استفتاء الأزهر في شئون المسرح والأغاني والروايات والفيديو كليب والمطبوعات واللوحات الزيتية وغير ذلك؟ وفي هذا السؤال نفسه تتردد أصداء سؤال آخر أعم خاص بطبيعة العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين ما هو ديني وما هو دنيوي.

في فترة سابقة تناول سيد قطب "النثر الفني في القرآن"، وكان من الممكن بنفس منطق

الطلخاوي والسرساوي القول بأن سيد قطب حين تحدث عن فنية النثر في القرآن قد هبط به إلى منطقة دنيوية وجعل لأدواته طابعا فنيا بشريا.

وكان من الممكن بمنطق الطلخاوي إقامة الحد عليه!

وبنفس المنطق مازال بوسعنا محاكمة عنترة بن شداد لأنه تجرأ في قصيدة قال فيها مزهوا بنفسه أمام عبلة: "ولو صلت العرب يوم الوغى.. لأبطالها كنت للعرب كعبة"!. ألم يشبه نفسه بالكعبة؟

ثم كيف يمكن للعرب أن تصلي لأبطالها؟!. مثل هذه الأمثلة بلا نهاية في تاريخ الشعر والأدب العربي القديم والحديث، ويمكن ليوسف رشاد أو محمد عباس أو غيرهما أن يتقدموا بشكوى مئات الأدباء للأزهر أي للجهة غير المختصة بالفصل في القضايا الفنية، مادمنا لم نضع بعد صلاحية الحكم على الأدب بين يدي الأدباء والنقاد فقط.

هذه القصة واحدة من قصص كثيرة تشكل تفاصيل حياتنا الآن، منها قصة المطربة التونسية ذكرى التي أجاز الشيخ الخضيري في الرياض إقامة الحد الشرعي عليها أي تنفيذ عقوبة القتل لمجرد قولها إنها عانت كما عاني الرسول)صلعم(.

المشكلة أن هذه التفاصيل الكئيبة تمثل إشارات

لمنهج كامل يسعى لفرض نظرة دينية على
الثقافة والفن. وما دمنا لا نلمس التقدم والتطور
الدين والأدب
35
في التفاصيل الصغيرة في حياتنا، فمن العبث
البحث عن أي تقدم في قضايانا الأخرى الكبرى.
فبراير 2002

الحوار المسيحي الإسلامي

الحوار المسيحي الإسلامي
39
يقول هاني لبيب في كتابه "الحوار المسيحي
الإسلامي رؤية جديدة" الصادر مؤخرا: إن البعض في
الغرب يردد أن الإسلام هو الخطر العالمي القادم، كما
يصفونه بالخطر الأخضر بعد زوال الخطر الشيوعي
الأحمر. ويؤكد: "غير أن هذا لا يعبر عن رأي الكنيسة
الوطنية أي الكنيسة القبطية في مصر التي
ترفض الخلط بين أقباط مصر ومسيحيي الغرب".
ويدعو الكاتب إلى حوار ديني بين طرفي الأمة
المصرية في الإطار المصري العربي أساسا بهدف
توسيع المساحات الفكرية المشتركة وتعميق
السماحة الدينية وتبديد الخرافات المتراكمة لدى

كل طرف عن الآخر. ويشير إلى أن الحوار المقصود هو"حوار الحياة المشتركة والمصير الواحد بعيدا عن شبهة الأهداف السياسية للدول العظمى".

وفي هذا السياق يرفض الكاتب المصطلحات التي صكت في الغرب مثل مصطلح السلام إذا كان المقصود به كسر مصطلح الجهاد كرمز للمقاومة، كما يرفض التطبيع الذي يتنكر في مصطلحات أقباط ومسلمون

40

مثل ثقافة السلام وقبول الآخر، لأن هناك غرضا آخر وراء تلك المصطلحات ألا وهو تطويع العقل المصري ليمضي إلى الخضوع والاستسلام. وينوه هاني لبيب عن حق بأنه لا يوجد شيء اسمه صراع الحضارات أو صراع الأديان، لأن الصراع الدائم المتجدد هو الصراع بين القوى والمصالح، وإن تغيرت أسماؤه وطرقه.

ويستشهد هاني لبيب بمقتل المصري القبطي عادل كراس في 15 سبتمبر منذ عامين كرد فعل على أحداث 11 سبتمبر قائلا: "بات مؤكدا أن العربي في الغرب مفهوم يشمل المسيحي والمسلم معا.. وكون عادل كراس عربيا كان كفيلا بإطلاق الرصاص عليه". ووفقا لهذه الرؤية فإن الأستاذ هاني لبيب يضع قضية الحوار المسيحي الإسلامي في إطارها الاجتماعي والوطني أساسا، لكنه يعود في أحيان

غير قليلة ليرى نفس القضية من المنظور المبتسر لجماعات حقوق الإنسان التي تعمل وفقا للأهداف الأمريكية والإسرائيلية، قائلا إن من الأهمية بمكان دعم قيمة الحوار من خلال منظومة حقوق الإنسان، كما يقع في أحيان غير قليلة في مصطلحات من النوع الذي صك في الغرب مثل:"رفض العنف بكل أنواعه وأساليبه"، فتلك المصطلحات العامة تكشف في اللحظة المحددة التي نعيشها، عن أغراض خاصة ومحددة.

وفي كتابه يشير هاني لبيب إلى الجانب

الحوار المسيحي الإسلامي

41

الفلسفي من القضية، أي عجز الإنسان عن إدراك تفرد u1588 شخصيته بغير اختبار التعايش مع الآخرين. وبعبارة أخرى فإن من المستحيل على المصري أن يفهم ذاته من دون تفاعل مع ثقافات وأطراف مجتمعه كلها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الإعلام والتليفزيون لا يضع الأقباط في دائرة الضوء الكافية، فلا ينقل احتفالاتهم أو شعائرهم بانتظام، ولا يجعل حياتهم وثقافتهم أمرا مألوفا، أي أن تلك الأجهزة تعوق عمليا التعايش المشترك. ولهذا السبب تحديدا فإن القرار الذي صدر مؤخرا باعتبار يوم 7 يناير إجازة رسمية يستحق التحية،

لأنه ينبه بوضوح ليس فقط لحق الأقباط في ذلك، بل ولحق المسلمين في مشاركة إخوانهم وأخواتهم الأقباط أعيادهم وأفراحهم.

وبالرغم من ذلك تظل الروح الوطنية الصادقة التي تستحق التحية هي التي ترفرف على مجمل صفحات الكتاب، وعلى دعوته الواعية لفتح حوار صريح يتناول بالتفصيل مشكلات العلاقة مع الأخوة الأقباط الأعزاء على المستوى الاجتماعي والثقافي والوطني.

يناير 2003

قصة الوشم

الأقباط والأدب..

قصة الوشم ـ الأقباط والأدب..

45

استوقفني موضوع الأقباط والأدب مبكرا، منذ أن قرأت لي عام 1965 صديقة عزيزة قصة قصيرة من تأليفها بعنوان "الوشم". بطل القصة عامل مسيحي بسيط في مصنع يجتهد طول الوقت أثناء عمله في مداراة "وشم" صغير على رسغه برسم الصليب. كان ذلك أيام عبد الناصر التي لم تشهد تقريبا الفتن الطائفية أو تمييز

المسلمين على المسيحيين بأشكاله الفظة. وكان عبد الناصر أول من لجأ إلى تعيين الأقباط في مجلس الشعب، وقرر قصر الترشيح على الأقباط في عشر دوائر ذات كثافة سكانية قبطية، إلى أن أعطيت سلطة تعيين عشرة أعضاء أقباط لرئيس الجمهورية مباشرة. وكانت سياسة عبد الناصر مقاربة لسياسة محمد علي مؤسس مصر الحديثة الذي رأى في إطار مشروع للنهضة أن "القبطي والمسلم يستطيعان أن يقدما للبلاد أفضل الخدمات". وكان محمد على أول من ألغى قيد الزي المخزي الذي كان مفروضا على الأقباط، أقباط ومسلمون

46

كما كان سعيد باشا أول من ألغى الجزية التي جثمت على صدورهم منذ منتصف القرن السابع. وارتفع مع ثورة 1919 الشعار الوطني المجيد "الدين لله والوطن للجميع"، وفي خضم أحلام الثورة الجامعة انتخب ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب دون أن يجد أحد في ذلك أمرا مستنكرا. لكن دعم النظام المصري للجماعات الدينية في عصر الانفتاح بهدف مقاومة الناصريين واليساريين أدى إلى استبدال شعار "الإسلام هو الحل" بشعار تاريخي عزيز هو "وحدة الهلال مع الصليب"، وإلى

إدخال تعديل شهير على المادة u1575 الثانية من دستور 1971 في نفس الاتجاه. وراحت الجماعات الدينية تنشر ثقافة التعصب والتكفير والكراهية في كل ركن، وتقدم "إسلامها" الخاص. وتوالت من نوفمبر 1972 بعد حادثة حرق الكنيسة في الخانكة أعمال العنف في مواقع عديدة آخرها كانت حادثة كنيسة العبور في يناير عام 2002 . وكان من البديهي أن تظهر في الأدب الآثار النفسية والاجتماعية لمثل هذا التاريخ الطويل، والخاص، وأن يخلق هذا التاريخ الطويل أيضا أبطاله ومشكلاته الروائية والفنية المختلفة ويقدم لنا ما لا نعرفه من أبعاد الشخصية القبطية. لكن ذلك لم يحدث. والغريب أن ذلك التكوين النفسي والثقافي الذي امتد في تاريخ طويل لمواطن يعشق وطنه ويحس بأنه يكافح

من أجله، ويكافح فيه في مواجهة التمييز، هذا التكوين ظل حبيس العتمة والهواجس الذاتية. الأغرب أن حبس ذلك التكوين تم في الأدب وهو المجال الذي يحظى فيه الكتاب بحرية تعبير خاصة. والأغرب أن الذين عرضوا للنماذج والشخصيات القبطية هم الكتاب الآخرون، مثل نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وغيرهما. وحتى عندما قام

إدوار الخراط أحيانا بطرق ذلك الجانب فإنه لم يفتح بابه على مصراعيه. وظل المواطن القبطي يداري الوشم الذي لم يخرج رسمه إلى النور صراحة أبدا. والتعبير عن الهموم القبطية في الأدب لا يعني -ولا يمكن أن يعني- أن ثمة أدبا قبطيا. فالأدب يعرف بلغته، وانتمائه القومي. لكن للمواطن القبطي همومه الخاصة في إطار الهموم العامة، وهي هموم لا يمكن أن يعبر عنها سواه. وعلى سبيل المثال فإنني -رغم أن لي أخوة أقباط أعزاء منذ زمن- ما زلت أجهل إلى الآن الأدعية التي تثب إلى ألسنة الأقباط عند وقوع كارثة، أو فرحة مفاجئة، ولا زلت أجهل الكثير من تقاليدهم، وأشعر بالخجل حين أجلس معهم في بعض أعيادهم، وأنا لا أدري شيئا عنها، أو عن مناسبتها.

لن يكون هناك أدب قبطي، ولا ينبغي أن يكون، كما أنه ليس هناك أدب نوبي، هناك أدب مصري. لكن لابد من أن تتنفس وتزدهر داخل أدبنا المصري أقباط ومسلمون

كل ألوان التعبير عن كل القضايا بحالتها الخاصة. وعندما أسمع عن حوادث اختطاف البنات المسيحيات في الصعيد وإجبارهن على الزواج من شبان مسلمين، أسال نفسي: ألا يصلح هذا

ليكون موضوعا لقصة؟ لماذا لا يكتب أخوتنا من الأدباء الأقباط عن ذلك؟ ومن أين يتولد لديهم هذا الشعور بالرهبة أو ربما الرغبة في تفادي إثارة المسألة فيمنعهم من الكتابة بصراحة عن قضاياهم؟. إن للتعبير الأدبي عن القضايا القبطية الخاصة u1571 أهمية بالغة، لأنه يجعل من الموضوع المجهول موضوعا معروفا مألوفا، ومن ثم يمكن اعتياده والقبول به. أما أن تظل قضايا الأقباط وعوالمهم المعنوية والفكرية الفردية والجماعية أسيرة للعتمة والصمت، فإن ذلك يجعلها شيئا مجهولا، قابلا لإضافات الخيال بالسلب والإيجاب، لأن الطبيعة تكره الفراغ، ومن ثم تملأه على الأغلب بالأوهام والتصورات المريضة عن الآخر. إن الحديث عن التواجد المشترك أمر مستحيل ما لم نصنع ذلك التواجد المشترك بتعبير كل طرف عن ذاته ووجوده. وما عدا ذلك يصبح الأمر تواجدا لطرف واحد ذي سطوة يستضيف طرفا آخر مهذبا لا دور له سوى الإنصات لحكايات الأول!. وتقع مسئولية التعبير الأدبي عن عالم الأقباط على أخوتنا وأخواتنا الأدباء وحدهم. هم وحدهم المسئولون عن قصة الوشم ـ الأقباط والأدب..

غياب أو حضور ذلك التعبير. أقول ذلك كله، لأنه

إذا لم يشق الفكر المستنير طريقه إلى العقل، فلابد أن نجد أنفسنا في نهاية المطاف في مواجهة شعار "الإسلام هو الحل" أو شعار "المسيحية هي الحل"، وفي مواجهة شعار "الأدب الإسلامي" أو شعار "الأدب القبطي". إننا أحوج ما نكون إلى أدب مستنير يتناول كل جوانب حياتنا ولا يجتهد طيلة الوقت في مداراة "الوشم" الصغير لأن مدارة الروح خطر على مستقبل مصر.

يونيو 2003

مكرم فهيم

وأحزان بلدنا

مكرم فهيم وأحزان بلدنا

53

صدرت مؤخرا الرواية الرابعة للكاتب مكرم فهيم "أحزان بلدنا". أولى رواياته كانت "هدير" عام 1968 . هناك إذن نحو خمس وثلاثين سنة من الاستمرار في الكتابة بين الروايتين. رواية مكرم فهيم الجديدة تطرح بصدق وموضوعية أحزان بلدنا في مائة وأربعين صفحة يحلق فيها الكاتب في سماء الوطن بأكمله انطلاقا من قصة مواطن قبطي تمزق وهو يفض اشتباكا مسلحا في الصعيد

بين مسلمين ومسيحيين. لقد انتقل الوطن تاريخيا مما يسميه الكاتب "سنوات التحدي الجسور" إلى اقتتال أبناء الوطن الواحد، وتغيرت القيم بحيث أصبحت اللمعة الأخلاقية الوحيدة هي لمعة أوراق البنكنوت، والسيارات من طراز الشبح، والصعود على حساب أي شيء، وبذخ القرى السياحية، وكل ما تلخصه وهيبة راغب مسعد عندما تتحدث عن زوج شقيقتها قائلة: "عنده فلوس، إذا رأينا فلوسا فوق البراز فإننا نلتقطها وننظفها"! عالم جديد له لغة جديدة بينما تغوص في أحراش الضفة

أقباط ومسلمون

54

الأخرى: البطالة والجوع وسكنى المقابر مصحوبة بريح التخلف والتعصب التي تهب من كهوف الظلمة. على هذه الخلفية يقدم مكرم فهيم روايته، أقرب ما تكون إلى البحث الأدبي والفني في وضع الأقباط منذ 1919 حتى الآن، من خلال تطور أحوال أسرة راغب مسعد وأولاده وعبر علاقات الأسرة المتشابكة في الصعيد والقاهرة والمهجر. وفي سبيل تقصي الحقيقة لا يجد الكاتب بأسا في الاستعانة بمقاطع من مقالات لمحمد حسنين هيكل وأحمد حجازي وغيرهما لإلقاء الضوء على الموضوع. السؤال الرئيسي هو وضع ومشكلات

أقباط مصر صراحة. نقطة الانطلاق النسيج المصري القومي الواحد. نقطة الصراع الخلايا السرطانية التي تنهش ذلك النسيج، وتشل التفاعل الإنساني والثقافي وتعطله، فيعتل البدن الواحد. بؤرة الأحداث والذكريات مصرع أو اغتيال أو إذا شئت استشهاد المقدم نبيل يعقوب في المنيا بالصعيد وهو يفض اشتباكا مسلحا بين مسلمين ومسيحيين. يبكي والده متسائلا:"هل الأقباط أقلية مستضعفة؟ هل هم جزء من نسيج الوطن؟ أم أن الحديث عن نسيج واحد لم يعد سوى محاولة لصرف الأنظار عن التعدد؟". من أين خرج التعصب والإرهاب وأصبح لرصاصه ذلك الدوي المسموع في مصر كلها؟ في فبراير 1994 عندما مكرم فهيم وأحزان بلدنا

55

أطلق الإرهابيون النار على المصلين في كنيسة أبو قرقاص وفي غيرها من قرى الصعيد؟ يتساءل الكاتب على لسان يعقوب نصر الله أحد ضباط الثورة: "هل أخطأ أقباط ثورة 19 عندما رفضوا اقتراح سعد زغلول بأن ينص دستور 23 على نسبة ثابتة للأقباط بمجلسي الشيوخ والنواب.. قالوا ندخلها كمصريين لا كأقباط.. هل أخطئوا؟".. ومن المسئول عن المناخ العام الذي يولد الإرهاب، ويجعل

البعض يفتي صراحة بأن من يصافح قبطيا فقد كفر؟. من المسئول عن اعتماد الجامعات كرسيا للغة الأرمينية ورفضها اعتماد كرسيا للغة القبطية وهي من تراث المصريين جميعا؟ من المسئول عن استمرار ما يسمى بالخط الهمايوني الذي يمنع استصلاح الكنائس لدورة مياه إلا بإذن خاص؟.

والأقباط عند الروائي مكرم فهيم ليسوا صورة مثالية في مواجهة صورة أخرى سلبية، فمن بينهم المتعصب الذي قتل أخته لأنها تزوجت مسلما، ومن بينهم من يستشير جمعية الكتاب المقدس قبل أن يتنزه مع فتاته إن كانت النزهة من حقه أم لا ، ومن بينهم محتالون، وأصحاب علاقات خاصة مع أمريكا. إنهم من نفس العجين الذي خرج منه الآخرون، لأن القضية في النهاية ليست قضية دينية، لكنها بالدرجة الأولى مسألة اجتماعية

أقباط ومسلمون

واقتصادية وسياسية، حتى لو كانت مشحونة بسطوة الأغلبية. وينتصر مكرم فهيم في روايته للتآخي، والعقل، والاستنارة، حين تكلف الجماعة الإرهابية شابا مسلما من بينها باغتيال أحد الأقباط، فيفيق ضمير الشاب ويرفض التكليف،

فيصبح هو الآخر ضحية للرصاص، كما كان نبيل يعقوب من قبل ضحية للرصاص. يتأكد انحياز الكاتب لمصر كلها حين يقول إن الوجدان الشعبي يبتدع كل ما يعزز الأخوة والمحبة. وأن مصر حارة واحدة للجميع.

لعل الملمح الأهم في رواية مكرم فهيم هو هذا الطرح الجريء الصريح لمشكلات النسيج الواحد. إذ لم يعد يكفي للحفاظ على ذلك النسيج أن نقول ونكرر إنه نسيج واحد. وقد أصبح من الضروري في الأدب والفن والثقافة من تحطيم حاجز الصمت المطبق الذي يحيط بتقاليد وعادات وعالم الشخصية القبطية، التي هي نصف قلوبنا ونصف عقولنا ونصف تاريخنا العريق. تحية لمكرم فهيم -الذي لا أعرفه شخصيا- روائيا وكاتبا وطنيا مبدعا.

يونيو 2003

رحلة إلى مستقبلنا

رحلة إلي مستقبلنا

59

تأهبت للسفر إلى الصعيد، وكعادتي كل مرة، وضعت في حقيبة سفري كل الأشياء التي لا أكف عن توهم أنها ضرورية جدا للسفر، ويتبين

لي، كما حدث من قبل مئات المرات، أنني لا أنتفع بها: كتب لا أقرأها في الرحلة، وأوراق لا أكتب عليها، وأقلام لا أستعملها، ونظارات احتياطية.

الرحلة إلى المنيا لزيارة الأماكن التاريخية فيها: تل العمارنة، ومقابر بني حسن، وجبل الطير الذي يقع فيه دير السيدة العذراء الذي احتمت به ومعها السيد المسيح طفلا خلال عبورها بمصر، ودير البرشا،والأشمونيين، وتونة الجبل. لم أكن أتصور أن المنيا وحدها تضم كل تلك الآثار والمعالم. الرحلة نظمتها جمعية "محبي التراث القبطي" وهي جمعية بلا مقر، ولا تليفون ثابت، لكنها تعمل بنشاط، وتنجح في تعريف أعضائها وغيرهم على معالم الحضارة المصرية القديمة بفضل مدام رينيه يعقوب ومجلس إدارة متطوع لخدمة الثقافة لوجه الله، من دون تمويل لا أجنبي ولا محلي. كنا أكثر من أقباط ومسلمون

60

أربعين شخصا التقينا أمام محل عمر أفندي في الجيزة في السابعة صباحا، ومن هناك انطلق بنا الباص السياحي يقطع الطريق بهدوء إلى المنيا. بجوار السائق وقفت مدام رينيه وبيدها ميكروفون ورحبت بنا معربة عن سعادتها بوجود هذه المجموعة التي تضم مثقفين مسلمين وأقباط في رحلة

واحدة بحثا عن تاريخ مصر القديمة. في الطريق الذي طال لأربع ساعات، اكتشفنا شيئا فشيئا أننا نقطع الطريق ليس بحثا عن ماضي مصر، بل عن مستقبلها! فقد تقاسم الجميع الطعام، والشراب، والأحاديث، إسحق حنا، وجورج ميخائيل مع هدى طعيمة، وميلاد يعقوب مع د. ميرفت عبد الناصر، ووجيه رمزي مع د. سوسن عبد الله. وحلق في جو الباص الكبير u1588 شيء جميل، كأنه التفاهم والأمل حين تصبح الفرصة متاحة للتفاهم بين الناس، فيكتشفون –كأنما فجأة– أن ما يجمعهم كثير جدا. بعد أربع ساعات توقفنا في جبل الطير، عند دير السيدة العذراء الذي أصبح كنيسة يعود تاريخها إلى أكثر من ألف وخمسمائة عام، وهي مبنى صغير لا تزيد مساحته على مساحة شقة، لكن يكفي أن تتصور أن السيدة العذراء مرت هنا لكي تحس أنك أمام مبنى ضخم يشع كل حجر فيه بالنور. لكن المكان المحيط بالكنيسة مهمل إلى أقصى درجة ويخلو من أية مرافق أو خدمات

رحلة إلي مستقبلنا

للتخفيف عن الزوار. توقفنا لنستريح قليلا، وكان يكفي أن ترى خالد عبد الحق المرشد السياحي واقفا يصلي، بينما تتناول نيرمين وفهيم طعام

صيام الأربعين يوما التي تسبق احتفالات الأقباط بعيد الميلاد. وقد هزتني من الأعماق هذه الصورة التي اجتمع فيها الشعور الديني بطرفيه تحت سماء مفتوحة تتسع رحابها لكل الأدعية. هزتني الصورة لأنني لم أر منذ زمن طويل مشهدا كهذا ترفرف في أجوائه روح المودة والاحترام المتبادل والمودة بين مسلم وقبطي.

انطلقنا بعد ذلك نواصل الرحلة، ونحن نتبادل النكات والضحكات، إلى أن بلغنا تل العمارنة، وهو الموقع التاريخي الذي يضم مقابر الأشراف التابعة لمدينة اخناتون. المدينة ذاتها"أفق تون"التي بنيت في وقتها بسرعة، اختفت، لكن المقابر المحفورة بعبقرية وجهد خارق ظلت داخل الجبل. والمعروف أن منطق البناء، أي بناء، هو الارتفاع بالمبنى من أسفل إلى أعلى، لكن موهبة قدماء المصريين تفتقت عن بناء معاكس، أي من أعلى إلى أسفل! فكانوا يحفرون في أعلى الجبل، ثم يهبطون بالحفر إلى أن ينتهوا من العمل. هناك كان علينا نحن وقلة من الأجانب أن نصعد مسافة طويلة لأعلى، بدون استراحة، ولا مقهى، ولا مظلة، ولا حتى درابزين يحيط بالسلالم المنهكة. أين تذهب إذن نقود هيئة الآثار إن لم تكن أقباط ومسلمون

لتطوير تلك المناطق وتوفير الخدمات بها؟.

في نحو الخامسة عصرا اتجهنا إلى مضيفة كنيسة ملوي وهي بيت من خمسة طوابق، ووضعنا حقائبنا في حجرات صغيرة نظيفة، وأكلنا لقمة، ثم التقينا بالأنبا ديمترويوس، وهو رجل مثقف، شديد التواضع، يتقن عدة لغات، أجاب عن أسئلة كثيرة وساذجة بصبر ومودة. وحدثنا عن اللغة القبطية، وأن حروفها دخلت إلى عدد كبير من لغات العالم، وأدهشتني المقارنة بين الحروف القبطيبة وحروف اللغة الروسية. فقد اتضح لي أنها متطابقة كتابة ونطقا بالتمام والكمال. وتعجبت لأنني كنت أدرس اللغة الروسية في موسكو u1587 سنوات طوال ولا أدري أن حروفها من عندي!

في صباح اليوم التالي خرجنا لزيارة "الأشمونيين"، و"تونة الجبل"، وفجأة كفت معالم الحضارة القديمة عن إثارة دهشتي حين أحاط بنا جمع من الأطفال الفقراء العرايا الذين اعتقدوا في البداية أننا أجانب، فالتفوا حولنا يصيحون "موني.. يا مستر"، فلما خاطبتهم بالعربية صاحوا بي "طب هات ربع جنيه".

عند عودتي إلى القاهرة، ظل في نفسي شعوري بالهواء النقي الخفيف داخل الباص، وبين البشر، هواء بلا تعصب، كنت أعب منه بنهم طيلة الوقت،

وقد أفاق يقيني إلى أننا قادرون معا على اجتياز المصاعب التي تعترض طريقنا.

ديسمبر 2005

المسألة القبطية
وما جرى في الإسكندرية

مؤسف جدا كل ما حدث في الإسكندرية مؤخرا من تهجم على الكنائس وإتلاف واجهاتها ومحتوياتها، وتخريب وسرقة محلات المسيحيين وحرق سياراتهم والتعدي على المستشفيات القبطية، وسقوط قتيل، وإصابة عدد كبير بجراح. والأكثر مدعاة للأسف ما قررته نيابة شرق الإسكندرية من ضبط 35 زجاجة مولوتوف وبعض الأسلحة البيضاء من سكاكين وجنازير، فطبيعة هذه الأدوات التي استخدمت تدل على تعبئة وشحن نفسي وفكري مسبق وطويل الأمد. والآن علينا أن نتخيل سبعة آلاف شخص يتواثبون بهذا العنف وهذه الأسلحة إلى أماكن العبادة لكي ندرك حجم ترويع البشر الذي تم، ودرجة الأسف والألم الذي أثارته تلك الأحداث. السؤال هو ماذا لو

تم مثل ذلك مع جامع أو مسجد كبير؟!. أما الكلام عن مسرحية عرضت منذ عامين ليوم واحد فقط داخل كنيسة مغلقة، فإنه لا يصلح مطلقا لتبرير العدوان. كان من الممكن لمن يعتبرون أن بالمسرحية مساسا بهم أن يتقدموا بشكوى إلى شيخ الأزهر، أو البابا شنودة، للتحقيق في الأمر ومعاقبة المسئولين عنه إذا كان في المسرحية ما يمس بالفعل مشاعر المسلمين، لكن أن يصبح العدوان وسيلة لحل خلافاتنا خاصة في مجال الدين، فأمر لا يمكن تبريره أو قبوله لا كحادثة عابرة ولا من باب أولى كقاعدة لحل المشكلات. أقول إن ما جرى شيء مؤسف جدا، وكلمة "مؤسف" تعبير مهذب ومقتضب عن مشاعر كثيرة أحسها كل من شاهدوا لقطات الهجوم الكبير على الكنيسة.

لكن لا الأسف يحل المشكلة، ولا استنكار الغوغائية، ولا شعور الأسى الذي يعبر عنه كبار المسئولين عن المؤسسات الدينية، ولا الحديث الذي يلوذ به المثقفون حول "الوحدة الوطنية"، و"الهلال والصليب". وبعبارة أدق فإن المشاعر الطيبة والخطب التي تعزف على نغمة ذكريات النسيج المشترك لن تنفع الآن بشيء. فما u1575 الذي يتبقى من النسيج بعد أن تنهال عليه الخناجر والجنازير؟. لقد أصبح تدخل الدولة بشكل حازم أمرا ضروريا للغاية،

ومن ناحية أخرى فلابد للمثقفين أن يتحركوا في اتجاه آخر. لقد قلت إن الوسائل المستخدمة تدل على حجم العنف ومشروعه، الأخطر أن من بين الذين ألقت النيابة القبض عليهم عددا من المتعلمين، أي أن مشروع العنف بوسائله ومادته البشرية يتخطى حدود الفئات الغارقة في ظلمة الجهل والتي شكلت فيما مضى الجيش الرئيسي للجماعات الإسلامية، كما أن ما جرى ليس حالة مفاجئة، أو تعبيرا عن مزاج فردي، لكنه حدث يحمل سمات وضع متكرر، يقع كل مرة بصورة وتفاصيل مختلفة، لكن بقاسم عام مشترك. أصبح من الضروري أن تتدخل الدولة، أولا لتغيير برامج التعليم، لأن أولادنا يرضعون التعصب منذ الصغر، ويرضعون الشعور بالانفصال عن الآخرين، بسبب غياب برامج التعليم المشتركة التي تغرس في التلاميذ من الجانبين أن تاريخ مصر تاريخ مشترك، حافل بالمساجد والكنائس، وبصور الكفاح والبناء المشترك مع أخوتنا المصريين الأقباط. أيضا لابد من التفكير في مادة، تعلم التلاميذ من الجانبين أن الله هو الرحمن الرحيم، وأن الله محبة وأن تجد هذه المادة ما هو مشترك بين الرسالتين السماويتين من تعاليم دينية وأخلاقية. ومن دون مراجعة لبرامج التعليم، سنظل نسمع أن مدرسا قال لتلاميذه

في الفصل: "كل مسلم سيدخل الجنة ممتطيا مسيحيا"! وسنظل نقرأ أن مدرسا قال لتلاميذه من اعتقد أن الأرض تدور حول نفسها فهو كافر! لابد من مراجعة مناهج التعليم وبرامجه وكتبه، وكيفية تأهيل المدرسين الذين ينفثون السموم في عقول بريئة. لابد أيضا من وقفة مع شيوخ الجوامع الذين لا يكفون في خطبهم عن إثارة الفرقة، وزرع الكراهية للآخرين، والتصريح بأن "من ليس منا فهو كافر".

لابد من مراجعة كاملة لما يتلقاه أئمة الجوامع من علم، لأننا في واقع الأمر أمام حالة اجتماعية وتربوية وثقافية عامة، لن تنفع معها سوى رؤية بعيدة المدى تتبناها الدولة، إذا أرادت الدولة أن تقلم أشواك الشر. ويظل على المثقفين واجب الدعوة لمؤتمر، وأكثر من مؤتمر، ليضعوا بعد نقاش مطول توصياتهم صراحة بهذا الشأن، مع طرح المشكلة كما هي في واقع الأمر، بدون تمويه على أوضاع الأقباط، أو تجميل للواقع القبيح الذي يولد التعصب فيه من رحم الجهل والفقر والتخلف. وإذا استطاع المثقفون أن يعقدوا مؤتمرا بهذا الشأن فإنهم سيشكلون قوة ضغط قادرة على أن تقود الرأي العام والدولة إلى تبني استراتيجية حقيقية لنزع جذور الإرهاب. فلم يعد رش الماء على حد

السكين يصلح شيئا، ولم تعد الطبطبة على الآخرين تنفع، ولا يجدي قولنا كل مرة: "معلش يا جماعة.. احنا مع بعض آهو". نحن أيضا في أشد الحاجة إلى إزالة كل القوانين التي تكرس التفرقة، لأن ربنا لم يمنحنا سوى وطن واحد، هو على كل عيوبه وبكل محاسنه كل ما نملك، وعلينا أن نصونه ونحميه، ليغدو – ولو في أحلامنا - أجمل الأوطان وأكثرها عدلا.

أكتوبر 2005

من أجل القرآن

من أجل القرآن

75

تأملت بإعجاب خبر المظاهرة التي قام بها مئات المسيحيين في إسلام آباد من أجل كرامة القرآن الكريم بعد أن دنسه جنود أمريكيون في معتقل جوانتانامو. وكنت أتوقع أن يكتب الكثير عن تلك المظاهرة في صحفنا وأن يفرد لها التليفزيون شيئا من أوقاته، وأن تغدو تلك الحادثة فرصة نستغلها لنؤكد للرأي العام عندنا معنى خروج المسيحيين من أجل القرآن الكريم بكل ما يتضمنه ذلك الخروج من قيم السماحة والأخوة التي نحن

أحوج ما نكون إلى ترسيخها. كنت أتمنى أيضا لو أفردت وسائل الإعلام مساحة لإلقاء الضوء على الحملة التي قام بها مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية لتعريف الشعب الأمريكي بالقرآن الكريم وتوزيعه مجانا على المواطنين الأمريكيين. لأن إبراز تلك الظواهر ووضعها في الضوء كفيل بأن يساعد على مواجهة ثقافة القوة والظلام التي تسبح في أجوائنا مثل الطيور العمياء. هذه الثقافة التي تنقر أذنيك وعينيك كل لحظة في كل أقباط ومسلمون

76

موضع على امتداد اليوم، بدءا من ذلك الذي يقتحم الميكروباص، فاردا كتفيه زاعقا بصوت يجلجل كالرعد:"السلام عليكم"مبحلقا في الجالسين يرتجفون من هول صيحته التي تحمل من التهديد أكثر مما تحمل من معنى السلام، مرورا بتشغيل شرائط كاسيت تبث آيات الذكر الحكيم ليل نهار دون أن ينصت إلىها أحد في ضجيج المواصلات والشوارع، والذين ينقضون بالملصقات على جدران القطارات والمترو والسيارات بعبارات مثل"الحجاب قبل الحساب"، أو"لا تنس ذكر الله"وتحت العبارة أو فوقها أرقام هواتف شركة تصليح دش أو محمول أو هاتف شركة تقسيط ثلاجات! ولا يعكس ذلك

في معظمه سوى حالة من التحفز والتحرش بخلق الله، وكأن الدين الإسلامي بحاجة إلى إعلان بعد أن مكن الله له في الأرض. شيئا فشيئا يتزايد عدد سائقي التاكسي الذين لا يتوقفون إذا أشارت إلىهم فتاة غير محجبة. أما في قطارات المترو فقد أصبح مألوفا أن تدخل إحداهن إلى العربة المخصصة للسيدات وتدعوهن فجأة ومن دون مبرر واضح إلى قراءة الفاتحة على روح موتى المسلمين جميعا. ماذا لو دخل قبطي يدعو الناس في المترو إلى الترحم على أرواح ضحايا الاضطهاد الروماني للمسيحيين؟ كيف سينظر إلىه الآخرون؟. ثمة رغبة تتخذ شكل شبكة من البشر تتواثب لفرض من أجل القرآن

77

مفاهيم سطحية للدين، وليس نشر كل ما في ذلك الإيمان المنير من محبة وتراحم. وقد كنت مرغما ذات مرة داخل أتوبيس إلى سماع محاضرة طويلة عن نوع جديد من قطرة العين صنعت مستلهمة من القرآن الكريم! كما يكتشف البعض دون توقف أن كل الاكتشاف العلمية موجودة أصلا في القرآن، لكنه لا يكتشف تلك الاكتشافات إلا بعد أن يكتشفها علماء آخرون في الغرب! لماذا لا يكتشف لنا أحد كل الفتوح العلمية في النصوص الدينية

إذن على أن يفعل ذلك مسبقا؟

أضف إلى كل ذلك معجزة المساجد التي لا ترحم مكبرات الصوت فيها طفلا نائما أو شيخا مريضا في الفجر. بينما مازلت أذكر إلى يومنا هذا أن إحدى القصص التي أثرت في نفسي تأثيرا بالغا في صباي كانت عن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أطال الصلاة ليعطي فرصة للأطفال لكي يفرغوا من لهوهم عند كتفيه. أما الآن فأرى في شارعنا الذي لا يزيد طوله على مائتي متر مسجدين يتقاطع فيهما صوت الآذان كل مرة في ذات المساحة من الهواء، فلا تفهم شيئا لا من الأول ولا من الثاني، وكأن المسألة مجرد إثارة ضوضاء للإعلان عن شيء معروف موعده مسبقا بالساعات والمنبهات. وهم في كل ذلك يريدون بالقوة نشر دعوة لم تنتشر إلا بالحسنى والحب والتودد، وتسود خلال ذلك كله رغبة أقباط ومسلمون

78

متحفزة في استبعاد الآخرين، ونفيهم، تصل إلى حد التحريض على المسيحيين والأقباط في خطب المساجد كل جمعة. وقد سمعت بنفسي ذات مرة خطيبا يهتف: لا تصافح مسيحي، فإذا ألقى عليك السلام فتجاهله! ولاشك أن هذا المناخ المشحون بالبغضاء والتربص، وتقديس الشكل الديني دون

الجوهر، أبعد ما يكون عن روح الدين السمحة، وروح الوطن، وثقافة الأمة، وتاريخها. وقد بلغت الأمور حد أن إحدى المعلمات في مدرسة يدرس بها ابن أحد الأصدقاء كانت تلقن التلاميذ الصغار أن "المسيحي" هي الكلمة المناقضة لكلمة المسلم! وفي حينه وجه صديقي خطابا إلى إدارة المدرسة يحتج فيه على ذلك النوع من العلوم! ولكن بم تنفع مثل تلك المبادرات الفردية وهي كثيرة؟ لقد أصبحنا في أمس الحاجة لأن نسمع في أجوائنا كلمات أخرى عن وحدة الأمة، ووحدة ثقافتها، وأهدافها، وعن الأخوة التي تربط المسلمين بالأقباط، وهو أمر لن يتم إلا بالنظر من جديد لكل الجذور التي تنمو عليها حالة التربص هذه. u1571 أما إذا استمر المناخ الحالي سائدا، فلا ينبغي إذن أن نستغرب ظهور من قتلوا فرج فودة، ولا من اعتدوا على نجيب محفوظ، ولا من قاموا بعملية التفجير في منطقة الموسكي. ذلك أننا نحرث التربة لكل تلك الأشواك التي لا ترى في الآخرين سوى أعداء من أجل القرآن

وخصوم. وكنت أتمنى أن أسمع، وأن أقرأ، وأن أشاهد الكثير عن معنى المظاهرة التي قام بها مئات المسيحيين احتجاجا على تدنيس القرآن الكريم

ودفاعا عن قدسية وكرامة القرآن الكريم. ومازلت أتمنى أن تدوي أصوات خطباء المساجد بكل ما يحفل به تاريخ مصر من صور التآخي والتآزر بين المسلمين والأقباط، وأن تحتشد خطبهم بتلك الحالة، وأن تضرب الأمثلة بالأقباط الذين تبرعوا لبناء المساجد، والأقباط الذين استشهدوا في سبيل حرية الوطن، والأقباط الذين شاركوا معنا في خلق ثقافتنا بدءا من خليل مطران شاعر القطرين، وسلامة موسى، ولويس عوض، وألفريد فرج، وغيرهم كثيرون ممن لا تحصى أفضالهم على الثقافة والوطن.

مايو 2005

الطريق للخروج من الأزمة

الطريق للخروج من الأزمة

83

بعد أحداث الإسكندرية الأخيرة، أخذ الكثيرون يطرحون المشكلة القبطية أو الطائفية، ويحللون أسباب ما جرى: هل الحكومة هي المستفيد من ذلك، وهل هي التي تقف وراء الفتنة وتغذيها؟ هل يحتاج النظام المصري لذريعة لتمديد قانون الطوارئ؟ هل الإخوان هم المستفيدون؟ هل تدخلت جهات أجنبية كأمريكا وإسرائيل تفيد الفتنة

مصالحها وتثلج قلوبها؟ ورغم أن كل تحليل مهم لعلاج المشكلة، إلا أن الاقتصار على التحليل فقط ليس كافيا. وهكذا يقترح البعض حلولا عملية كأن يصل اليسار بدعايته إلى الجميع، ليوضح أن الخاسر الوحيد في الفتنة الطائفية هم المصريون والفقراء منهم تحديدا. وبذلك يطرح اليسار مفهومه الطبقي للأزمة، على أساس أن هناك مسيحيين ومسلمين أغنياء تربطهم مصالح قوية بالدولة، وهناك في المقابل مسيحيون ومسلمون فقراء، يواجهون معا الاستغلال. فهل تستحق هذه الفكرة الدعاية لها؟ وهل تمثل من باب أولى أقباط ومسلمون

حلا للأزمة الطائفية؟. حلول أخرى لدفع الفتنة

يرى البعض أنها تتمثل في تنظيم الناس في مؤسسات أو أحزاب أو جمعيات تدافع عن مصالح الناس مما يمنع انحدارهم إلى الصراع الطائفي. ولكننا إذا فكرنا قليلا في موضوع تنظيم الناس لوجدنا أن خير ما ينطبق على ذلك الاقتراح هو المثل الشهير: "موت يا حمار على ما ييجي لك التنظيم أو العليق"! فإلى أن يقوم مثل ذلك التنظيم إذا قام أصلا، ستكون الفتنة قد زادت، u1608 وسيكون مئات القتلى والجرحى قد تساقطوا من الجانبين، خاصة

أن اليسار -صاحب هذه الدعوة- يعاني تاريخيا من أزمة تنظيم نفسه أولا قبل أن يفتح الله عليه بتنظيم الناس. وفي اعتقادي أن علينا -قبل إلقاء اللوم على أي طرف حكومي أو إخواني أو أجنبي- أن نلوم القوى المستنيرة ومن ضمنها اليسار والتي لا تستطيع أن تتبنى صراحة مطالب الأقباط العادلة المعروفة:

- نزع خانة الديانة من البطاقات وجوازات السفر، لأن المواطن يعرف بجنسيته وليس بدينه.

- مساواة الأقباط بغيرهم في أوقات البث الإعلامي والتليفزيوني لطقوس الأقباط الدينية.

- الإلغاء النهائي والكامل لكل قرارات "الخط الهمايوني" التي تعود للقرن 19 ، والتي تلزم الأقباط بالحصول على موافقة رئيس الجمهورية أو غيره الطريق للخروج من الأزمة

85

لإصلاح دورة مياه داخل كنيسة، أو ترميم كنيسة، وغير ذلك.

-إعادة أراضي الوقف المسيحية للأقباط.

-وقف كافة أشكال التمييز عند التعيين في الوظائف، وفي الترقية، وفي الوصول إلى المناصب الكبرى كالمحافظ، والوزير، والمناصب الكبيرة في الشرطة والجيش والجامعات والمعاهد.

-وضع القوانين اللازمة التي تجرم وتعاقب على"إثارة الكراهية"من على منابر الجوامع، وفي المدارس، والنظام التعليمي، وتطبيق ذلك.

-وضع مادة تاريخ في المدارس بحيث تعتمد على حقيقة أن تاريخ مصر هو ضفيرة من الكفاح المشترك لكل أبنائها، وأن تاريخ مصر إبداع المسلمين والأقباط. وإدخال المراحل المسيحية في مواد التاريخ، وهي المراحل التي لا تشير إلىها مناهجنا بحرف واحد، بحيث ينشأ لدينا جيل من الأطفال يدركون أن "الله الرحمن الرحيم" هو "الله محبة"، والكف عن النزعة السائدة لإضفاء الطابع الإسلامي على مواد لا علاقة لها بالدين.

إن معاناة الأقباط تمتد إلى جوانب كثيرة منها ضعف التمثيل السياسي لهم، إذ ليس هناك سوى 6 نواب أقباط في مجلس الشعب من أصل 454 نائبا، منهم واحد منتخب وخمسة معينون، ووزيران، وهم يعانون من مناخ من الكراهية أقباط ومسلمون

المنحطة، والتكفير، وانحياز الدولة الديني إلى الطرف الآخر، مما يشجع الكثيرين على التهجم الإجرامي على الكنائس والأفراد من الأقباط.

وفي اعتقادي أنه إذا كان للقوى المستنيرة من

دور، فهو تبني تلك المطالب المشروعة المذكورة، وتبنيها بقوة وصراحة، ومطالبة الدولة والضغط عليها لوضعها موضع التنفيذ، لأن ذلك سيعطي إخوتنا الأقباط على الأقل شعورا بأن هناك من يتفهم مشاكلهم ويسعى لتبني حلول عملية لها. وإذا كانت تنظيمات كثيرة تحت أسماء مختلفة تريد أن تقدم لنا شيئا ملموسا، فلتبدأ ببيان يدعو الحكومة إلى تحقيق هذه المطالب، يوقع عليه الجميع، ولتواصل عملها من أجل مؤتمر لطرح هذه القضية وحدها، ليس من أجل تحليل ما يحدث، بل لرفع صوت هذه المطالب، والضغط إلى أن تتحقق، أما المظاهرات تحت شعار "ضد الطائفية"، فإنها تظل مظاهرات تحمل شعارا عاما. وكان يمكن لمظاهرات تحمل شعارا عاما مثل"ضد الطائفية "أن تكون مفيدة، لو جاءت ردا على مظاهرات تحمل شعار"نحن مع الطائفية"، أما وأن ذلك لم يحدث، فلماذا نسير بشعارات عامة لا تمثل حلولا ملموسة وواضحة؟. إننا بحاجة لتبني تلك المطالب المحددة، وهي مطالب عادلة، ومن دون أن تصبح تلك المطالب واقعا قانونيا ودستوريا سيظل هناك من يتجرأ الطريق للخروج من الأزمة

ويرفع خناجره، وجنازيره، في وجه إخوتنا الأقباط

مستهدفا تمزيق تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا.

نوفمبر 2005

الطائفية.... إلى متى؟

الطائفية.... إلي متى؟

أربعة شهور فقط هي فترة الهدنة بين أحداث العنف الديني بالإسكندرية نوفمبر العام الماضي 2005 وأحداث العنف في الإسكندرية هذا الشهر. وهي فترة زمنية قصيرة تشير إلى أن التماسك القومي يتدهور بمعدلات سريعة وينحدر من الوطنية الجامعة إلى الانتماء الديني. وإذا كانت أحداث نوفمبر قد شهدت الهجوم على الكنائس بالجنازير والخناجر، فإن أحداث الإسكندرية هذه المرة قد نزفت بدماء الجرحى والقتلى من الجانبين. والتفسير الحكومي لما جرى في الإسكندرية تفسير نفسي. فقد أكد بيان وزارة الداخلية أن محمود صلاح الدين الذي هاجم كنيسة مار جرجس إنما: "يعاني من اضطراب نفسي"، وبعبارة أخرى فإنه "مختل". ومثل هذا التفسير أسهل بكثير من إعلان الحقيقة والقول صراحة بأن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي هوالمختل. فالقول

بأن ثمة شخصا مختلا يعفي الدولة والنظام والجميع من أية مسئولية، لكن إذا كان الواقع أقباط ومسلمون

92

مختلا فلابد أن هناك أطرافا ومؤسسات مسئولة تستوجب المحاسبة، كما أن الاعتراف باختلال الواقع لابد أن يستدعي ضرورة مراجعته، وهو أبعد ماتريده المنظومة السائدة والقائمون عليها الذين استراحوا إلى"ترحيل المشاكل"لأجيال أخرى وأزمنة وأمكنة في طي المجهول. لكن السؤال هو: ما الذي قد تكسبه مصر من التمويه على الحقائق إذا خسرت نفسها ووحدتها الوطنية في خضم العنف الديني؟. وأزمة الحريات الدينية جزء من أزمة الحريات عامة، فمازالت إلى يومنا تشكل لجان للنظر في مكافحة حبس الصحفيين في قضايا النشر، ومازال قانون الطوارئ ساري المفعول، ومازالت أحزاب كثيرة تعمل سرا دون ترخيص، ومازلنا نسمع عن منع مقالات لكتاب كبار في صحف قومية كبيرة، ومازالت عمليات الاعتقال غير القانونية تجري على قدم وساق، ومازالت الكتب تصادر من وقت لآخر كلما عنَّ لأحد أو جهة مصادرتها، ومازالت عمليات التعذيب في أقسام الشرطة مستمرة لا يتحكم فيها سوى مزاج الضباط الشخصي، ومازالت

القوانين تجرم حق التظاهر وتشكيل النقابات.

وعلاوة على ترسانة القوانين التي تقيد الحريات بالنسبة للجميع، فإن أقباط مصر يعانون من عبء إضافي يتمثل في سيادة ثقافة الكراهية العامة التي تروجها منابرنا كل يوم، وتبثها مدارسنا في الطائفية.... إلي متى؟

93

عقول الأطفال، كما يعانون من الانحياز الديني لأجهزة الدولة التي تتمسك بتعريف المواطن بديانته وليس بقوميته. وفي ظل هذه الظروف من الطبيعي أن يتجرأ الناس العاقلون والمختلون على الآخرين وعلى دور عباداتهم، ما دام الآخرون في خانة مهمشة قانونيا ودستوريا وثقافيا. لقد أصبح على الدولة أن تقدم على خطوة حاسمة، لأن ما جرى في الإسكندرية مؤشر خطير، يهدد الجميع، ولابد أيضا للجهات المستنيرة أن تتبنى هذه المطالب بحيث ينشأ لدينا جيل جديد من أطفال يدرك أن "الله رحمن رحيم"، وأن "الله محبة"، وأن تاريخ مصر ضفيرة من الكفاح والإبداع المشترك لجميع أبنائها: سلامة موسى وطه حسين وحسين بيكار، لويس عوض ويوسف إدريس، ألفريد فرج ود.عبد العظيم أنيس، إدوار الخراط ومحمد البساطي، فؤاد حداد ومحمد المخزنجي، د. ماري تيريز عبد المسيح ود.

رضوى عاشور، وغيرهم كثيرون ممن استنارت مصر بعلمهم وعملهم.

17 أبريل 2006

الدولة والنزعة السحرية

الدولة والنزعة السحرية

97

يعد اختفاء البشر من دون سبب واضح من الظواهر السحرية التي جاءت في حكايات ألف ليلة وليلة، مثال ذلك حكاية الأمير الذي سحرته ابنة عمه الخائنة وسحرت معه مدينة السلطان محمود صاحب الجزائر السود وما فيها من الأسواق والغيطان، وكانت المدينة أربعة أصناف مسلمين ونصارى ويهودا ومجوسا فسحرتهم ابنة العم سمكا، فالأبيض مسلمون، والأزرق نصارى، والأصفر يهود، والأحمر مجوس، ثم أخفتهم في بركة ماء. هذا في الأدب، وليس في الحياة، ومع ذلك فقد حدثت معجزات كتلك في الواقع وليس في الخيال، فقد اختفى الصحفي رضا هلال نائب رئيس تحرير الأهرام في 11 أغسطس 2003 ، وهو ملء السمع والبصر، فلم يظهر له أثر من ساعتها ولم نعرف من u1575 الذي سحره إلى يومنا هذا؟. من الظواهر

السحرية أيضا أن ترى أمامك بشرا، يتحركون، ويتزوجون، ويأكلون، لكنهم لا يحسبون من بين الأحياء! أقصد مجموعة البهائيين المصريين الذين أقباط ومسلمون

98

يسكنون المنازل، ويركبون المواصلات، ويعملون في المؤسسات، ويتزوجون، وينجبون، ولكن ما من علامة واحدة في سجلات الدولة تثبت أن لهم وجودا شرعيا وقانونيا في مصر!

البهائيون موجودون، ويمكنك أن تلتقي ببعضهم، وأن تراهم، وتخاطبهم، وتسمع أصواتهم، و يمكنك- لقطع الشك باليقين- أن تمد أصابعك وتلمس أبدانهم لتستوثق بنفسك من أن وجودهم حقيقة. ومع ذلك، فسوف تفشل فشلا ذريعا إذا حاولت أن تتيقن من وجودهم الرسمي.

تسأل البهائي: ألست فلانا؟ يقول: نعم. تسأله: ألا تعمل في المصلحة الفلانية؟ يقول: نعم. تسأله: أنت متزوج؟ يقول: نعم. تستفسر: لك أولاد؟ يقول: نعم. تسأله: هل لديك بطاقة أو شهادة ميلاد أو جواز سفر أو رخصة قيادة؟ يقول: لا. تسأله: هل تستطيع أن تشتري أو تبيع أو توقع عقدا؟. يقول: لا. تسأله: طيب.. هل تستطيع أن تتعامل مع البنوك؟ يقول: لا. تسأل: هل تستطيع تحديد موقف

أولادك من التجنيد؟. يقول: لا. لا أستطيع. وحينئذ تفرك عينيك وتدقق النظر إلى البهائي بحيرة، أهو حقيقة أم وهم؟ أبدان تدب على الأرض أم أطياف تسبح في الجو؟ فإذا كانوا حقيقة فكيف اختفوا من كل الأوراق الرسمية؟ وإن كانوا وهما فكيف يتحركون ويأكلون وينامون؟ بل وينجبون؟! أتكون الدولة والنزعة السحرية

99

تلك هي الواقعية السحرية في طبعتها المصرية؟ ومن هو المؤلف المبدع لذلك النص السحري؟ أهو وزير العدل المصري؟ أم وزير الداخلية؟ أما المناخ العام؟

البهائية حقيقة دخلت إلى مصر منذ منتصف القرن 19 ، وأصبح البهائيون بعدها جزءا من نسيج المجتمع المصري، والحديث بشأن مشكلتهم هنا أمر لا يتعلق بالدين والمسموح والممنوع، لأنهم لا يناشدون أحدا الاعتراف بديانتهم، لكن ما ينشدونه هو حق التحول من وهم إلى واقع، أقصد حقوق المواطنة التي لا علاقة لها بالموضوع الديني. فقد عانى البهائيون من عجزهم عن تسجيل أنفسهم كبهائيين في خانة الديانة والبطاقات الشخصية وقسائم الزواج وجوازات السفر، وواجهوا مختلف الصعوبات عند استخراج شهادات الوفاة، والتعامل

مع البنوك وإدارات الحكومة، وإلحاق أبنائهم بالمدارس والجامعات، وإثبات موقفهم من التجنيد، أو حصول أراملهم على المعاش، أو مجرد إتمام عمليات البيع والشراء! الغريب أن هناك حالات لبهائيين كانت الزوجة فيها أمريكية والزوج مصري، أو العكس، وصدرت شهادات ميلاد للأطفال من دون ذكر أية ديانة أصلا! ربما لأن البهائي الأمريكي من النوع الأصلي ومش مضروب كالبهائي المصري!.

وقد ظهرت مشكلة البهائيين منذ زمن بعيد،

أقباط ومسلمون

100

وفي حينه ففصلت فيها محكمة شرعية مصرية عام 1923 وقضت بالاعتراف بالبهائية كدين. لكن الدولة أغلقت فيما بعد محافلهم بالقرار الجمهوري رقم 263 لعام 1960 ، واعتبرتهم بفتوى أزهرية ملة مارقة، وجاء قرار آخر عام 1961 حرم الاعتراف بالبهائية. ثم وصلت الأمور حد إلقاء القبض على مجموعة من البهائيين في فبراير 1985 كان من بينهم الرسام المعروف حسين بيكار!

ما يطالب به البهائيون أمر لا علاقة له بالاعتراف بديانتهم من عدمه، إنهم يطلبون منحهم شهادات ووثائق بدون أية هوية دينية، يطالبون بحقوق المواطنة لتنظيم شئون حياتهم وحياة

أولادهم. هذا أو يظل البهائيون موجودين وغير موجودين، يتحركون على شعرة دقيقة بين الواقع والوهم، وفي هذه الحالة ينبغي على الدولة أن تمنح مؤلف ذلك النص السحري جائزة الدولة التقديرية في الأدب، على أمل أن تمتد واقعيته السحرية فيحول أنواع البشر المتبقية إلى أسماك تطويها مياه البركة التي تخفي الحكومة في أعماقها القضايا الهامة!

14 مايو 2006

جبهة إسلامية ـ مسيحية

جبهة إسلامية ـ مسيحية

103

تم الإعلان في القدس الشرقية عن تكوين "جبهة إسلامية مسيحية" بزعامة كبار رجال الدين الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين. وأعلنت الجبهة أن الهدف من قيامها هو العمل المشترك على حماية الآثار الإسلامية والمسيحية المقدسة والدفاع عن المسجد الأقصى في وجه الهجمة الأخيرة التي ترمي لتقويض أو تهويد المسجد في إطار المخطط الإسرائيلي لتهويد القدس الشرقية المعمول به منذ احتلال 67 . وبطبيعة الحال فإن لتلك الآثار التي تعتزم الجبهة الدفاع عنها ـ غير أهميتها

المعمارية كأثر حضاري- أهمية خاصة اكتسبتها اعتبارات أخرى دينية وتاريخية ووطنية حين خرجت المشاعل مرفوعة من تلك الأماكن لمواجهة ظلام الاحتلال والاستعمار. ولهذا فإن العمائر والقباب تجسيد لقيم معنوية جديرة بالحماية. إلا أن هناك الكثير من القيم المعنوية والوطنية -نحيا بفضلها- من دون تجسيد ملموس، أو حجارة، أو مبنى، وكلها في أمس الحاجة للدفاع عنها وحمايتها، وبعضها أقباط ومسلمون

104

مثل حجر الوحدة الوطنية المصرية الراسخ عرضة للضعف بعد نحو ثلاثين عاما كاملة من التوتر الطائفي، منذ وقوع حادثة"أخميم"عام 1970 ، وبعد أن كان أحمد شوقي يخاطب الوطن u1576 بقوله:"ولو أني دعيت لكنت ديني.. عليه أقابل الحتم المجابا"انقلبت الآية وأصبح دين كل جماعة هو وطنها، وغدا قول أحمد شوقي من الآثار التي تحتاج إلى حماية ودفاع، مثله مثل أنشودة بديع خيري وسيد درويش: "لا تقول نصراني و لا مسلم.. اللي أوطانهم تجمعهم.. عمر الأديان ما تفرقهم". ترى ألسنا بحاجة إلى جبهة إسلامية مسيحية مصرية لحماية قيمنا المعنوية؟ ألسنا بحاجة لائتلاف إسلامي مسيحي ثقافي تمضي مواكبه وأدباؤه في كل ناحية لحماية

آثارنا المعنوية؟.

لقد راح الواقع يلتهم كل قيم التآخي،

ويستأصلها، ويقتلعها من جذورها على نحو بربري

ووحشي، حتى أخذت تلح على ضرورة ظهور قافلة

ثقافية من كتابنا المسلمين المسيحيين، تتحرك

في كل مكان، وتتوجه للأقاليم، وتقيم الندوات

وتنشط من أجل الدفاع عن قيمنا وآثارنا المعنوية.

مارس 2007

أيام عزبة واصف

وأيام طه حسين!

أيام عزبة واصف وأيام طه حسين!

107

أسبوع واحد بالضبط يفصل ما بين التفكير

في حذف "أيام طه حسين" من مناهج التعليم،

وأحداث الفتنة الطائفية في عزبة واصف! الخبر

الأول تم الإعلان عنه في صفحة الصالون الثقافي

بجريدة الجمهورية في 5 مايو 2007 وجاء فيه أن

مديرية التعليم في القاهرة رفعت تقريرا إلى

مستشار اللغة العربية في وزارة التربية تنتقد

فيه تدريس كتاب"الأيام"لطه حسين في المرحلة

الثانوية وتطالب بوقف تدريسه. وذكر الموجهون

والمدرسون الذين شاركوا في كتابة التقرير أنهم

حصلوا على وعود شفهية بوقف تدريس الكتاب.

لكن ما الذي أثار حفيظة أولئك في تلك"الأيام"؟

السبب كما جاء في تقريرهم أن الكتاب يحتوي

على نقد لاذع للأزهريين وهو: "ما لا يليق بالدرس

التربوي"، وعلى حد قولهم فإن "الأيام" لا تتضمن

سوى القليل من الكفاح في مسيرة طه حسين

العلمية، كما أن طه حسين نفسه كان يعتبر كتابه

"غير ذي قيمة"! لا أدري بالضبط أين أو متى اعتبر

أقباط ومسلمون

108

طه حسين أن كتابه "غير ذي قيمة"؟ ولا أدري ما هي

مديرية التعليم؟ ومن هم المدرسون والموجهون؟ ما

إنجازهم أو قدرهم الثقافي الذي يؤهلهم للحكم

على عميد الأدب العربي والمطالبة بحذف كتابه؟!

إنهم كبار أدباء ومفكري وشعراء ونقاد مديرية

التعليم الحائزين على جوائز بارك العيد وقم حيي

العلم "وأوسمة" إن، ولكن التي تمنحها مدرسة

راتب باشا! إنهم النسخة المنقحة من عمال

مطابع مجلة إبداع الذين يصادرون المجلة كلما عن

لهم ذلك، إنهم من يطردون كل فكرة مستنيرة

وكل كتاب ذي قيمة من التعليم ومن رؤوس

الطلاب، ليصونوا من بين علوم u1575 الوراثة والذرة وثورة

الاتصالات والرياضيات واستكشاف الكواكب علم

"المبتدأ مرفوع والخبر منصوب"! ويتذرع أدباء المديرية في تقريرهم بأن طه حسين تناول الأزهريين بالنقد اللاذع، فهل الأزهريون ملائكة محصنة ضد النقد؟ أو الفساد؟ أم أنهم بشر؟ فيهم الصالح وفيهم الطالح؟ وبأي حق يمنح أدباء المديرين الأزهريين حصانة ليست لهم؟ أم أن الأمر يستدعي أن نذكر لهم صفحات من تاريخ الأزهريين مع شعراء وش البركة ليدركوا أن الأزهر لا يمنح أحدا مع شهاداته صكا بالنقاء والطهر؟ لم يقم طه حسين الذي يدرس كتابه منذ أكثر من عشرين عاما بأكثر من انتقاده للبعض، علما بأن طه حسين نفسه أزهري!

أيام عزبة واصف وأيام طه حسين!

109

لكن القضية أبعد من ذلك، وهي تتعلق بما يقوم به جيش التيار الديني السلفي من حرث لمناهج التعليم وإحراق كل زرع مفيد فيها، بحيث لا يبقى سوى القشور، وهو التيار ذاته الذي يحرث الوعي الاجتماعي مستنبتا أشواك الفتنة الطائفية.

لهذا لم يكن مستغربا أن نسمع في 11 مايو بعد أسبوع واحد من نشر خبر أيام طه حسين عن أحداث عزبة واصف وثلث سكانها من المسيحيين، وعن الاشتباك الذي استخدمت فيه الأعيرة النارية بين المسلمين والمسيحيين وسقوط عدد من

القتلى من الجانبين بعد محاولة إحراق الكنيسة هناك. العجيب في الأمر أن المحرضين على الفتنة كانوا من المدرسين أيضا! أقول ليس مستغربا أن تندلع تلك الفتنة بعد نبأ عن عزم المديرية على حذف طه حسين، ذلك أن مناهج التعليم عندنا صارت مشبعة بالكثير من ألوان التمييز والجهل والبغضاء التي ينشرها"أدباء المديرية"على حين أن دور تلك المناهج هو حماية الوحدة الوطنية. لقد أصبح من الضروري مراجعة تلك المناهج بحيث تشتمل على قيم وطنية، جامعة، ترسخ الوعي بأن الدين لله والوطن للجميع، في التاريخ والأدب والمواد النظرية كافة. إننا نريد مناهج علمية لا يتم فيها حذف طه حسين، بل إضافة المزيد من أعمال الكتاب المستنيرين، مثل سلامة موسى، ومحمد أقباط ومسلمون

110

مندور، نريد مناهج تعتمد فيها مادة التاريخ على حقيقة أن تاريخ مصر ضفيرة من الكفاح المشترك لكل أبنائها، وأن تاريخها إبداع المسلمين والأقباط، فتتضمن المراحل القبطية من التاريخ التي تقفز فوقها المناهج وتوجزها في كلمتين، هذا لكي ينشأ لدينا جيل من الأطفال يدرك أن "الله الرحمن الرحيم" هو "الله محبة". هذا و إلا فإننا سنجد

أنفسنا وقد خسرنا معركة الوحدة الوطنية
في مواجهة جيش الفكر الديني المتعصب الذي
يهيئ التربة u1575 المصرية للعنف، ويشن حملة على
الثقافة والفنون باعتبار أنها في معظمها ألوان
من النشاط المحرم.
إن المسافة ليست بعيدة بين محاولة إسقاط
كتاب عميد الأدب العربي ومحاولة إحراق كنيسة
إذ يقفز المتعصبون من حذف المعاني إلى المباني ومن
هدم العبارة إلى الحضارة. وفي هذا السياق فإن"أيام
عزبة واصف"هي الأيام التي يريدون تعميمها، وهي
عندهم أجمل وأصلح للدرس من"أيام"طه حسين!
مايو 2007
وحش التمييز

ربما يكون السؤال الأساسي في موضوعنا
هو: متى ظهرت الطائفية في مصر؟ وأين تكمن
جذور انفجارها المتكرر خاصة في العقود الأخيرة؟.
ويمكن طرح السؤال ذاته من الجانب الآخر المقابل:
متى اختفت الطائفية في مصر؟ وأين تكمن
جذور الوئام القومي بأبعاده الدينية والاجتماعية؟.
الملاحظ أن حدة الظاهرة الطائفية اختفت في

تاريخ مصر فقط في اللحظات التي شهدت فيها مصر مشروعا قوميا عاما للنهضة. حدث ذلك عند المواجهة الشعبية المشتركة للغزو الفرنسي عام 1789 ، حيث رفض الأقباط الانضواء تحت لواء الجنرال يعقوب، وأداروا وجوههم لمساعي بونابرت لبذر بذور الخلاف بينهم وبين المسلمين، وواجهوا مع إخوانهم المسلمين الغزو في القاهرة والصعيد. حدث ذلك التلاحم أيضا خلال مشروع محمد علي للنهضة بمصر، وفي عهد حفيده الخديو إسماعيل الذي كان أول من عين وزيرا قبطيا، وقدم الأقباط أرواحهم فداء لمصر خلال مواجهة الاستعمار البريطاني،

أقباط ومسلمون

114

ودورهم سنوات الاحتشاد لثورة 19 ، وخلال الثورة معروف، حيث وقف الشيخ محمد عبد المطلب عام 1911 يخطب في حشد كبير من المسلمين يحتفلون بعيد رأس السنة القبطية قائلا لهم: كلانا على دين به هو مؤمن.. ولكن خذلان البلاد هو الكفر!. أخيرا شهدنا ذلك التلاحم الوطني في مرحلة عبد الناصر، وحينما لم يفرق الرصاص الإسرائيلي والأمريكي بين قبطي ومسلم في 1967 ، وفي حرب الاستنزاف، وحرب أكتوبر. ويذكر سلامة موسى في كتابه "تربية سلامة

موسى" أنه كان من القبط كاهن معروف هو القسيس سرجيوس الذي كان لا يبالي أن يقول ويكرر أنه: "إذا كان استقلال المصريين يحتاج إلى التضحية بمليون قبطي فلا بأس من هذه التضحية". وحين قرر القس سرجيوس عام 1949 خوض المعركة الانتخابية، لم يكن معه مليم واحد، فخرجت وراءه الناس من كل الطوائف يؤيدونه هاتفين في الشوارع: "من غير فلوس.. يا سرجيوس"!

وفي سبتمبر عام 1923 عند عودة سعد زغلول من منفاه قال في أول خطاب له: "رصاص الإنجليز لم يميز بين قبطي ومسلم من أبناء مصر"!

وكتب بديع خيري u1608 وغنى سيد درويش:

اسمع اسمع مني كلمة

إن كنت صحيح بدّك تخدم..

وحش التمييز

115

مصر أم الدنيا و تتقدم

لا تقول نصراني و لا مسلم

اللي أوطانهم تجمعهم

عمر الأديان ما تفرقهم

هم التحرر الوطني، وإنجاز مشروع عام للنهضة، لم يترك فرصة للأديان لتفرق الناس. وقد صحا هذا الشعور في تاريخنا الأحدث زمن عبد الناصر حينما

كان المواطن يحس بأنه مصري أولا قبل أن يكون مسلما أو مسيحيا وأن هويته الوطنية والقومية تسبق هويته الدينية. إلا أن عهود النهضة التي انطوت على مشروع للتحرر والبناء لم تستطع أن تنتزع أبدا وبشكل نهائي جذور الطائفية، لكنها كانت تخفف من حدتها. ذلك أن عنصر "المشروع القومي للنهضة والتحرر" الذي يصهر الناس معا في بوتقة أمل كبير بالترقي، هو عنصر متحول، يظهر ويختفي ليؤثر سلبا أو إيجابا على القضية، وخلال ذلك تظل عناصر أخرى ثابتة تغذي الطائفية وتنتهز أية فرصة للظهور بقوة. من تلك العناصر الثابتة الطابع الديني للدولة، والفقر، والجهل الذي لا تنمو في ظله ثقافة ناهيك عن ثقافة التسامح، ثم وضع الأقلية وعلاقة الأغلبية بها. فإذا تلاشى المشروع القومي للتقدم والتطور، تقدمت العناصر الأخرى الثابتة -على انفراد أو مجتمعة- تنهش وحدة الأمة.

أقباط ومسلمون

116

الدولة والدين

حتى عام 1855 كان الأقباط محرومين من دخول الجيش، وكانوا يدفعون الجزية. وفيما بعد صدر دستور 1923 -بعد ثورة 19 الوطنية- يتضمن كفالة المساواة للمصريين جميعا بغض النظر

عن الدين أو الجنس أو اللغة. ومع ثورة يوليو وضع عبد الناصر حجر الأساس لكاتدرائية البطرسية بالعباسية تأكيدا على التقاليد الوطنية العريقة، إلى أن جاء أنور السادات فقام عام 1971 بالنص في المادة الثانية من الدستور على أن "الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع"، وكان نص المادة قبل ذلك يخلو من أل التعريف التي أضافها السادات. وفي واقع الأمر أصبح النص)بأل التعريف(تشريعا دستوريا للفتنة الطائفية أعقبه دعم السادات للجماعات الإسلامية وإطلاق يدها لتصفية التيار الوطني وإنجازات ثورة يوليو، تمهيدا للتسوية السياسية الأمريكية. وسرعان ما برزت آثار التشريع، عندما قام "مجهولون" عام 1972 بإحراق كنيسة شيدت من دون ترخيص في منطقة الخانكة بمحافظة القليوبية فخرج الأقباط يحتجون في مظاهرة. وسرعان ما أخذت تشحب وتتراجع للخلف إنجازات ثورة 19 وثورة يوليو الفكرية، وفي مقدمتها مبدأ "الدين لله والوطن للجميع"، والتأكيد على أن وحش التمييز

"مصر للمصريين" وهي دعوة أحمد لطفي السيد الذي كتب في 5فبراير 1908 يقول: "إن من بيننا

من لا ينفك يفخر بانتسابه للعرب الأولين، كأنما انتسابه إلى الجنس المصري نقص وعيب، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على رابطة الجنسية الوطنية، فإن لم نذهب عنا هذا التحلل نمت أسبابه، وفشت نتائجه"، وأخذت تعلو من جديد الأصوات التي ترى أن الإسلام الرابطة الوحيدة بين أهل مصر. وزاد السادات الطين بلة حين أعلن في أغسطس 1971 عن عزمه على إصدار قانون الردة الذي يعاقب بالإعدام كل مرتد عن الإسلام! وأدرك الأقباط أن ذلك القانون سيعود بهم إلى وضع "أهل الذمة"، وصرح البابا شنودة بأن: "مشروع القانون يتنافى مع الدستور" لأنه يستبعد أي عقيدة أخرى غير الإسلام. وفي 5سبتمبر 1977 أعلن الأقباط صياما امتد لخمسة ايام احتجاجا على مشروع القانون فتراجعت الحكومة عن الأخذ به، وكتب مصطفى أمين في أخبار اليوم في عموده "فكرة" يقول: "حمدت الله أن القانون الذي وافق عليه مجلس الدولة بإعدام المرتد عن الإسلام لم يصدر منذ سبعين عاما، فعندما أصدر قاسم أمين كتابه تحرير المرأة اتهموه بالارتداد عن الإسلام، وعندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه الإسلام وأصول الحكم اتهموه بالارتداد عن الإسلام،وعندما أصدر أقباط ومسلمون

طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي اتهموه بالارتداد عن الإسلام" ورغم تراجع الدولة إلا أن مجرد طرح القانون للنقاش كان بمثابة إشارة للجماعات الإسلامية بالموقف الرسمي المؤيد لها مما شجعها على المزيد من النشاط. وتوالت بعد ذلك أحداث العنف بدءا من "نيسة الخانكة"عام 1972 ، وأحداث الزاوية الحمراء)منطقة شعبية في مصر(في 17 يونيو 1981 ، وقتل فيها حسب الإفادة الرسمية تسعة أقباط، أو نحو ثمانين قبطيا حسب تقدير الكثيرين، وأحرقت فيها منازل ومحلات الأقباط. وادعى أنور السادات أن المذبحة جرت بسبب: "ماء غسيل وسخ ألقاه قبطي على عائلة مسلمة"! بينما كان الصراع يدور حول قطعة أرض لبناء إما كنيسة أو جامع! وفي 1994 وقعت أحداث قرية صنبو بأسيوط وقتل فيها 13 مواطنا، وفي فبراير 1996 وقعت حوادث مماثلة في كفر دميان بالشرقية، وفي فبراير 1997 اقتحم اثنان ساحة الصلاة في كنيسة ماري جرجس بقرية"أبو قرقاص"بالصعيد وأطلقا النار على الأقباط دون تمييز. وشهدت مصر بعد ذلك أشد ألوان العنف في أحداث قرية الكشح بالصعيد في أول أيام سنة 2000 وأسفرت عن مقتل نحو عشرين قبطيا. وقد طرحت تلك الأحداث،

وما تلاها، حقيقة أن ما يسمى "النسيج الوطني المشترك" يتعرض لأزمة شديدة، وأن التغني بالحديث وحش التمييز

119

عن"وحدة الوطن"أمر لا يكفي للحفاظ على ذلك النسيج، كما أن رسائل المواساة، والقبلات المتبادلة بين شيخ الأزهر والبابا لم تعد مجدية. وقد صفعت أحداث الإسكندرية المؤسفة في أكتوبر العام الماضي الجميع بحقيقة الأزمة، وبحجم الأزمة التي نزفت بدماء القتلى من الجانبين، وبتحطيم الكنائس والهجوم عليها بالجنازير والخناجر. وبين ذلك كله بما لا يدع مجالا للشك أن مصر تواجه منعطفا خطيرا، يتعمق بمعدلات سريعة ويمتد من الريف والصعيد)المناطق الأكثر فقرا وحيث تتدنى نسبة التعليم(إلى المدن المتنورة والمتعلمة، وأن الحالة القومية تنحدر بمعدل سريع من الوطنية الجامعة إلى كهوف الانتماء الديني والتعصب الأعمى. ولا يمكن لشخص لديه قليل من الإنصاف أن ينكر ما يعانيه الأقباط باعتبارهم أقلية بين أغلبية عم فيها فكر الإسلام السياسي المتطرف، بدءا من خطب الأئمة في الجوامع التي تحرض على الأقباط وتدعو لعدم مصافحتهم، وانتهاء بالتشريعات الرسمية التي تكرس التمييز. وللأقباط مطالب

محددة، لابد من الاستجابة لها، لنزع فتيل الأزمة التي تتفاقم في مناخ من الكراهية المنحطة، والتكفير، وانحياز الدولة الديني إلى الطرف الآخر مما يشجع الكثيرين على التهجم الإجرامي على الأقباط وعلى الكنائس.

أقباط ومسلمون

120

ولاشك أن هناك عوامل -غير دينية- تكمن وراء الطائفية وفي مقدمتها الفقر، والبطالة، وغياب المشروع الوطني، والجهل، ولكن إذا كانت الدولة عاجزة عن حل أي من تلك المشكلات، فإن بوسعها -مع ضغط من المثقفين المستنيرين- أن تبدأ بالاستجابة لحقوق الأقباط ومطالبهم لرفع التمييز الديني. هذا أو أن الطائفية التي سوف تتغذى على الفقر والجهل المتزايدين سوف تصبح وحشا، تطعمه قوى داخلية وخارجية، ليصبح قادرا على ابتلاع ما تبقى من مصر.

مايو 2007

الأزمة في الأدب المصري

الأزمة في الأدب المصري

123

نحن أمام أكثر من مئة عام انقضت ما بين

صدور أول رواية تتناول أوضاع أقباط مصر وهي "القصاص حياة" لعبد الحميد خضر عام 1905 ، وبين أحدث الأعمال التي تتناول القضية ذاتها وهي رواية "شيكاجو"، لعلاء الأسواني الصادرة عام 2007 .

هو قرن كامل تعرض فيه موضوع التمييز الديني، أو الطائفية بتفجرها، أو العلاقة بين مسلمي ومسيحيي مصر، إلى تغيرات كثيرة، ومن ثم كان انعكاسها في الأدب المصري بأشكال مختلفة وعبر رؤى عديدة. وبطبيعة الحال فإننا لسنا بصدد تقديم ثبت بأسماء الروايات والأدباء الذين تناولوا ذلك الموضوع، ولا الرصد التاريخي للتحولات في التناول الأدبي لتلك الظاهرة وفهمها والموقف منها، فتلك مهمة فوق طاقتي، لكن كل ما أتمناه هنا أن أعرض بعض تجليات العلاقة بين الأقباط والمسلمين في الأدب، عند لحظات التحول الفاصلة بما يكفي لإلقاء الضوء على القضية.

من هذا المنطلق ربما تكون رواية "شيكاجو") 1(لعلاء أقباط ومسلمون

الأسواني أفضل ما نبدأ به، ليس فقط لتأثير أعمال ذلك الكاتب وانتشارها غير المسبوق ولكن لأن "شيكاجو" هي أيضا أحدث ما صدر من أعمال أدبية تتناول الطائفية. وقد سبق للأسواني أن تناول

الموضوع ذاته في رواية "عمارة يعقوبيان") 2(حيث قدم شخصية قبطية هي سناء فانوس التي تداري شعورها بالذنب من علاقاتها العاطفية بعمل الخير عن طريق الكنيسة. أيضا فإنه في مجموعته "نيران صديقة") 3(في قصته المسماة "عزت أمين اسكندر" يتخذ من عزت القبطي بطلا، ويصف لنا: "ابتسامته الخافتة الوديعة.. ونظرته القبطية"، وهو ما يكرره الأسواني في شيكاجو حين يقدم لنا د. كرم دوس المهاجر المصري إلى أمريكا بقوله: "رجل مصري، ملامحه قبطية خالصة". وخلافا لما هو شائع بأن تمييز القبطي عن المسلم بالملامح أمر مستحيل، يكاد الأسواني أن يوقن بأن لأقباط مصر ملامحهم الخاصة الفارقة. ويطرح الأسواني في روايته"شيكاجو"الأزمة الطائفية من زاوية جديدة هي: تدويل الصراع أو الأزمة عن طريق أقباط المهجر. وينطلق في عمله من ركيزة أساسية أن الأقباط في مصر يعانون اضطهادا واضحا صريحا لا يمكن إنكاره. ويكر الأسواني خيط الأزمة في الرواية بزيارة من صفوت شاكر مسئول المخابرات في السفارة المصرية لعميل من الدارسين ليسأله عن الطلاب الأزمة في الأدب المصري

الأقباط الدارسين في جامعة "إيلنوي" ويطلب منه

إعداد تقرير عن د. كرم دوس أحد زعماء الأقباط في المهجر. ويقدم لنا الأسواني حكاية كرم دوس فنعرف أنه كان يدرس الطب في جامعة عين شمس إلى أن عطله عن الالتحاق بقسم الجراحة والنجاح في الماجستير أستاذه المسلم د. عبد الفتاح بلبع الذي يحتقر الأقباط كافة ولا ينادي أيا منهم إلا بكلمة "خواجة")أي يا أجنبي(، ومن ثم يقرر كرم دوس الهجرة لأمريكا لكن بعد أن يقول لأستاذه صراحة : "أنت تظلمني لأني قبطي".

في مدينة شيكاجو يلتقي كرم دوس بناجي عبد الصمد الذي جاء للدراسة فيقول لناجي "الأقباط مضطهدون في مصر.. هل سمعت عما جرى في قرية الكشح؟ لقد تم ذبح عشرين قبطيا أمام أعين الشرطة ولم يتحرك أحد لإنقاذهم") 4(. وفي المقابل يطرح ناجي رؤية أخرى للمسألة حين يقول لكرم دوس:"النظام في مصر مستبد وفاسد يضطهد المصريين جميعا مسلمين وأقباطا.. جميعا يعانون من التمييز ضدهم ماداموا ليسوا أعضاء في الحزب الحاكم.. أنا مسلم لكنهم رفضوا تعييني في جامعة القاهرة بسب نشاطي السياسي") 5(. ويتبين لنا مدى وحشية التمييز الديني حين يقدم كرم دوس وهو أحد أمهر جراحي القلب في مدينة شيكاجو عرضا لجامعة عين شمس لإجراء العمليات مجانا

مرة في العام للمرضى في مصر لكن الجامعة تتجاهل اقتراحه! ويضيف الأسواني إلى شخصية كرم دوس بعدا إنسانيا حين يصف لنا كيف قبل كرم دوس بإجراء عملية مجانا لإنقاذ حياة الدكتور عبد الفتاح المسلم الذي سبق أن أغلق في وجهه فرص العلم والنجاح لمجرد أنه قبطي!. في الرواية يقوم ناجي عبد الصمد المسلم المستنير، وكرم دوس القبطي، ود. جون جراهام اليساري الأمريكي معا بتنظيم مظاهرة في شيكاجو للمطالبة بوقف اضطهاد الأقباط في مصر مع مطالب أخرى. ومع أن التدخل الخارجي في الأزمة الطائفية لم يتوقف يوما داخل مصر إلا أن حدة ذلك التدخل تزايدت في العقد الأخير بحيث وجدت ذلك الانعكاس في رواية شيكاجو باعتبارها أن تدويل الأزمة ظاهرة جديدة. وفي الرواية سنجد إذن اعترافا لا لبس فيه بوجود أزمة طائفية وبالاضطهاد الذي يعاني منه الأقباط، كما سنجد أيضا نظرتين للأزمة الطائفية والموقف منها تميزت بهما تاريخيا حركة الطليعة: الأولى التي ترى اضطهاد الأقباط باعتباره جزءا من اضطهاد سياسي عام، والثانية التي تقدر أن للمشكلة ـعلاوة على جذور الاضطهاد العامةـ

طابعها الخاص المعقد.

أما عن أول رواية بذلك الشأن فإن الإشارة إلىها تأتي عند الدكتور سيد حامد النساج في الأزمة في الأدب المصري

127

كتابه "بانوراما الرواية العربية الحديثة") 6(حين ينوه بكاتب لم يرد اسمه في أي من المؤلفات وهو عبد الحميد خضر القرقاصي، مؤلف رواية "القصاص حياة" التي صدرت عام 1905 ، وجاء في مقدمة المؤلف لروايته أنه استند في عمله إلى حادثة حقيقية وقعت يوم الأربعاء 27 أكتوبر 1903 في بلدته أبوقرقاص بمديرية المنيا. وتدور القصة أو الرواية حول أن كرلس عبد الملك الترابي الشاب اللاهي دبر حيلة لقتل ابن عمه غالي، لان ابن عمه كان قد خطب نجلاء التي كان كرلس يحبها بجنون. وهكذا يدس كرلس السم في حلوى لغالي، لكن صبيا عابرا يأكل الحلوى ويموت بها. ويعرض المؤلف سجن كرلس، وصدور الحكم بالإعدام عليه، ثم تفكير كرلس في تغيير ديانته u1604 لينجو من الحكم. ويطرح الكاتب أيضا قضية أخرى شائكة أي زواج البنت عند المسيحيين رغم أنفها، ويرفض ذلك. وهكذا نجده يخوض في قضايا شائكة. وبنص كلمات د. النساج فإن تلك الرواية على حد علمه

هي أول رواية تتناول مشكلة خاصة بالبيئة المسيحية في صعيد مصر وهي "جرأة لم تتأت إلا لكاتب مسيحي هو عيسى عبيد عام 1922 ". ومع أن عبد الحميد خضر لم يطرح المسألة من زاوية الصراع الطائفي إلا أنه قدم للمرة الأولى موضوع التمايز الثقافي والديني بين المسلمين والأقباط

أقباط ومسلمون

128

وقضية تغيير الديانة التي مازالت تثير المشكلات إلى يومنا. وما بين رواية"القصاص حياة"، ورواية "شيكاجو" فرضت المسألة الطائفية نفسها على الأعمال الأدبية برؤى عديدة متسقة إلى حد كبير مع التوجه العام لهذه المرحلة التاريخية أو تلك، وما رافقها من نهوض أو انحطاط.

وفي خضم ثورة 19 ، التي وحدت الشعب المصري بأقباطه ومسلميه في مشروع وطني، برزت رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم التي كتبها عام 1927 سنة وفاة سعد زغلول زعيم الثورة. وسنلحظ أن الرواية تتحدث عن "التحام الكل في واحد" وأن الحكيم جعل سنية بطلة الرواية تجسيدا لوحدة تاريخ مصر: الفرعوني القبطي، والإسلامي، حين رمز لها بإيزيس، فهي سنية المسلمة وهي في الوقت ذاته إيزيس، وهي تجمع في كل الأحوال حبيبها

الوطن وتوحده. وعلى حد قول على الراعي:"سنية إذن هي إيزيس جمعت أوصال البلاد"لتعيد الروح إلىها) 7(. هذه الرؤية الموحدة للأقباط والمسلمين هي أيضا التي ألهمت النحات العظيم محمود مختار عبقرية تمثاله "نهضة مصر" عام 1928 الذي جسد به مصر في هيئة فلاحة تضع يدها على رأس أبي الهول في كتلة صخرية واحدة فرعونية قبطية - عربية مسلمة. في مارس من العام ذاته أصبح ويصا باشا واصف أول قبطي ينتخب رئيسا لمجلس الأزمة في الأدب المصري

النواب! ولم يكن مستغربا أن تتردد أغنيات سيد درويش وبديع خيري التي تقول: "لا تقول نصراني ولا مسلم.. اللي أوطانهم تجمعهم.. عمر الأديان ما تفرقهم". وبانحسار المد الوطني، تمكن الطاغية إسماعيل صدقي عام 1930 من إلغاء دستور 1923 الذي كان ثمرة الكفاح الوطني المشترك للمصريين على اختلاف أديانهم ليفتح بذلك الباب للطائفية، وفي "السكرية" يعترف نجيب محفوظ بوجود أزمة طائفية، ويحدد موقفه منها على لسان كمال عبد الجواد وطبيعتها في تلك المرحلة متسائلا: كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟") 8(، وبالرغم من ذلك فإن محفوظ يعرض لصداقة

ومودة لا يفرقها اختلاف الدين بين u1603 كمال المسلم والقبطي رياض قلدس هذا على الرغم من أنهما: "لم يكونا شيئا واحدا، وإن كانا متكاملين فيما يبدو" 9(. وتنفجر مشكلة الطائفية على لسان رياض حين يصارح كمال بقوله: "إن الأقباط جميعا وفديون، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة التي تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، ولذلك كان الأقباط هدفا لُلاضطهاد السافر طوال عهد صدقي" 10 (، ويوجز رياض الأزمة التي يعيشها القبطي قائلا: "أشعر في أحايين كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت.

أقباط ومسلمون

130

ولكن مهلا.. أليس من الجبن أن أنسى قومي؟ شيء واحد خليق بأن ينسيني هذا التنازع ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة" 11 (، وحين يعرب رياض عن شعوره بأن المسيحية وطنه فإنه في حقيقة الأمر يشير إلى زاوية في غاية الأهمية هي التمايز الثقافي الذي يرافق المواطن منذ نعومة أظافره. ومن الغريب أن يشير كاتب قبطي آخر بعد انقضاء نصف القرن ـ وهو رؤوف مسعد إلى الظاهرة ذاتها حين يقول: "هناك بديهيات أهمها أني لا أستطيع

التنكر لجذوري الثقافية الدينية)بالرغم من عدم إيماني(التي تعطيني قدرا من الخصوصية في كتاباتي الأدبية لا يمتلكه الكاتب المسلم") 12 (.

ورغم أن مدا طائفيا ظهر في الأربعينيات خاصة مع بروز الإخوان المسلمين، إلا أن ثورة يوليو عالجت بطريقتها الخاصة الأزمة الطائفية، بحيث أصبحنا نقرأ لإحسان عبد القدوس قصة مثل "الله محبة"، وبحيث أصبح عبد الحميد جودة السحار يكتب "المسيح عيسى بن مريم" جنبا إلى جنب مع"السيرة النبوية"وكأنه ينهل من نبع واحد. إلا أن أزمة الطائفية تفجرت أعنف ما تكون بعد ذلك، وتحديدا عندما تخلى أنور السادات عن اسم "جمهورية مصر العربية المتحدة" وأعلن في 11 سبتمبر 1971 الدستور المعمول به إلى اليوم والذي نص في مادته الثانية على أن: "الإسلام دين الدولة ومبادئ

الأزمة في الأدب المصري

131

الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع"، وأطلق في الوقت ذاته كل القوى الدينية الرجعية من إسارها ليواجه بها التيار القومي واليساري المعارض للتحولات التي قام بها. وفي 14 مايو 1980 وهو ذروة الصراع الديني والطائفي أعلن السادات في خطاب له:"أنا رئيس مسلم لدولة إسلامية"وهو

ما لم يصرح به أي حاكم مصري منذ محمد علي حتى قاله السادات متجاهلا الثنائية الدينية في مصر. ومنذ عام 1972 لم تتوقف أشكال الصراع الطائفي بين المسلمين والأقباط المستترة طوال الوقت، والعنيفة المتفجرة في ذروة الأزمات. وبعد أن كان الوطن دين المصريين، أصبحت أديانهم أوطانهم، مما فرض على الأدب طرحا آخر أشد صراحة، وأكثر وضوحا. وهكذا ظهرت رواية "وعلى الأرض السلام" لفاروق خورشيد عام 1984 بعد وفاة السادات، والواضح أنها كانت ثمرة تأمل ورد فعل على عنف الأزمة الطائفية التي بلغت ذروتها في أحداث الزاوية الحمراء في 17 يونيو 1981 التي أحرقت خلالها منازل ومحلات الأقباط، وقتل فيها نحو ثمانين قبطيا حسب تقدير غير حكومي أو تسعة حسب الإفادة الرسمية. وادعى السادات أن المذبحة بسبب: "ماء غسيل وسخ ألقاه قبطي على عائلة مسلمة"! بينما دار الصراع على قطعة أرض لبناء إما كنيسة أو جامع. وفي روايته يجدد فاروق أقباط ومسلمون

خورشيد مواثيق الحركة الوطنية تجاه الأزمة، ودعوة توفيق الحكيم إلى وحدة تاريخ مصر وتجميع أوصال البلاد، إلا أن خورشيد لا يجعل شخصيته الأولى

في الرواية امرأة، بل رجلا قبطيا هو فيليب! وإذا كان الحكيم قد دمج إيزيس في سنية، فإن خورشيد يدمج فيليب في رمز عربي هو سيف بن ذي يزن، وترد على لسان إحدى الشخصيات عبارة: "الكل في قارب واحد") 13 (المرادفة لعبارة "التحام الكل في واحد" التي أشار إلىها د. الرعي بشأن عودة الروح، وعبارة نجيب محفوظ "كانا متكاملين فيما يبدو"، وكلها تنويعات مستنيرة على شعار القومية المصرية "الدين لله، والوطن للجميع". وإجمالا يمكن القول إن ضمير الأدب المصري لم يتخل لحظة عن شعوره بالتسامح ودعوته إلى التآخي، وإن كان لكل قاعدة استثناء، ليس فقط على صعيد الأدباء المسلمين، بل وعلى صعيد الأدباء الأقباط. فبينما أخذ الإخوان المسلمون يلحون مؤخرا على الدعوة إلى "أدب إسلامي" بل وإلى "أسلمة العلوم"، أي إضفاء الطابع الديني الإسلامي على شتي نواحي الفكر، فإن بعض الأقباط أخذوا بدورهم، وكرد فعل، يتشبثون بفكرة الأدب القبطي، وإحياء الموسيقى الفرعونية، بل واللغة القبطية القديمة. وفي هذا الصدد يشير د. عبد المحسن طه بدر في كتابه تطور الرواية العربية الحديثة) 1938 - 1870 (الأزمة في الأدب المصري

في أماكن متفرقة إلى دور ما يمكن أن نسميه النظرة الدينية المسيحية في الرواية المصرية، فيقول إن جرجي زيدان الشامي المتمصر كان كثير التعاطف في رواياته مع الفرس والأرمن والبرامكة وغيرهم، ولم يكن منصفا للعرب والمسلمين، وعادة ما تكون الصفات الإيجابية من حظ أبطاله المسيحيين، وهو ما فعله فرح أنطون في روايته "أورشليم الجديدة" التي تحدث فيها عن فتح العرب لبيت u1575 المقدس، ورغم ميول فرح أنطون الاشتراكية، فقد كان ملحوظا: "تعصبه ضد العرب والمسلمين، ويظهر ذلك أولا في أن جميع أبطال قصته كانوا من غير العرب والمسلمين.. كما أنه حقر النبي أرميا في روايته لأنه أسلم". هناك أيضا رواية تبشير مسيحي كتبها من يدعى "مسيو ثيوبلد" عام 1928 باسم"زهرة الغابة"ونشرتها مطبعة النيل المسيحية وفيها دعا كاتبها المسلمين إلى المسيحية وتعصب تعصبا شديدا ضد الإسلام.

ويرجع الدكتور عبد المحسن طه بدر ذلك إلى أن غالبية أولئك المؤلفين كانوا من الشوام الذين لم ينصهروا في بوتقة التاريخ المصري) 14 (. وفي هذا الإطار تظهر رواية"اللوح المكسور"لزكي غوربال زكي، فتكشف عن تلك الخصوصية الثقافية التي تمثل جانبا من الأزمة، وتبين أن للمسألة الطائفية

عادل يقر في الدستور بحقوق كافة الأطراف، ويضعها موضع الممارسة الفعلية. في روايته يفتح الكاتب أمام أعيننا الحياة القبطية، وطقوسها الدينية، ويطرح إلى جانب ذلك جوهر الأزمة حين يقول "باولا" الرواي لزوجته ناهد إن سبب صدور قرار بنقله من وظيفته في القاهرة إلى بني سويف هو تلك "التفرقة الدينية". ويرسم الأستاذ غوربال صورة دقيقة للنفسية القبطية الحذرة، المترددة، التي تكونت عبر تاريخ طويل من التمييز. انظر مثلا حين تقول ناهد لزوجها باولا: "إذا توحدنا لن يقدر أحد على النيل منا" فيجيبها بقوله: "وإذا تكتلنا سينالنا كل الضرر"، وتوضح إجابة باولا هذه شعور الأقباط من ناحية بضرورة توحدهم، وخوفهم في الوقت ذاته مما قد يجلبهم عليهم ذلك التكتل من صدام ومشكلات. هذه النفسية الحذرة التي يخلقها الشعور الدائم بتربص الآخرين بصاحبها، تبلغ أعلى درجاتها حين يلتقي "باولا" بزملائه الجدد في العمل وكلهم من المسلمين ما عدا "ماتياس" القبطي، ويقوم أحدهم بتعريف الآخرين إلى باولا قائلا له: "لدينا كل التخصصات.. أنا وسيد فرغلي

طاولة.. فرغلي متخصص جلبهار، همام دومينو، الأستاذ متياس شطرنج". ويفكر باولا كالتالي: "إنه يحب الشطرنج، لكنه لو أعلن ذلك سيفهم ضمنا تشيعه لمتياس"! إلى هذه الدرجة يصل الحذر من الأزمة في الأدب المصري

135

سوء الفهم، ومن مظنة التشيع! ويقرر باولا أنه "بما أنه قرر تنحية قبطيته جانبا.. وخشية أن يشعروا بأنه يرفضهم.. قرر الذهاب معهم". إذن هناك قبطية يتم تنحيتها لصالح الأغلبية؟ الحذر يصل بباولا إلى درجة أنه حين يلعب طاولة مع محمد أفندي - يفكر كالتالي: "خشى من u1601 فوزه على محمد أفندي .. فلعب كيفما اتفق حتى لا يستثيره ضده.. لكن الحظ عانده وكسب"!)فوز القبطي هنا سوء حظ عليه أن يتفاداه!(ويمضي باولا مفكرا بينه وبين نفسه: "اجتهد ألا يكسب في الأدوار التالية" لكنه يفوز رغم اجتهاده لكي يخسر! ويفكر: "ماذا يفعل في مواجهة تلك الكارثة؟" إن باولا يعتبر فوزه على مسلم في ألعاب التسلية على أقل تقدير سوء حظ إن لم يكن كارثة! ويختار باولا كمخرج من المأزق أن يغير نوع اللعبة ليتمكن من الخسارة! المهم أن يحتفظ بود الآخرين نحوه. إن باولا:"غريب وعاجز، ينمو بداخله رفض لحالته لكنه لا يملك حلا") 15 (. وما

يعانيه باولا ليس حالة تخصه هو، بل هي حالة عامة، ويؤكد ذلك ما يصفه لنا الكاتب من بيت متياس القبطي، فهناك: "باب حديدي في كل ركن منه صليب مستتر في التشكيل الحديدي"، وحتى الأقمشة التي تغطي الأجهزة الكهربائية فإنها عبارة عن "كسوة مزركشة.. والزركشة تحتوي على صلبان مستترة"!. وليس لمدارة النفس والعقيدة أقباط ومسلمون

136

من سبب سوى ما أشاعته الأغلبية في نفوس الأقلية من خوف وحذر. إن الصورة النفسية التي قدمها الأستاذ غوربال لوجدان الأقلية هي تكثيف حقيقي للأزمة في أعمق وأبعد مستوياتها الروحية غير المرئية.

وقد ظهرت في العقد الأخير أعمال أدبية عديدة تعكس عمق الأزمة الطائفية، منها رواية "يقين العطش"، ورواية "صخور السماء" التي تتناول حكاية أسرة قبطية بالكامل لإدوار الخراط، ورواية "الغردقة" لرأفت الميهي، ورواية "صانعة المطر"، ورواية "بيضة النعام" لرؤوف مسعد، ورواية"سانت تريزا"لبهاء عبد الحميد، وكذلك "أحزان بلدنا" لمكرم فهيم، ورواية "كف مريم" لسعيد سالم وغيرها، وقد يوضح هذا الاهتمام الكبير من جانب الكتاب،

وذلك الكم الضخم نسبيا من الروايات عمق الأزمة وحاجتها إلى حل. إلا أننا نفضل أن نتوقف هنا عند كاتب عظيم هو بهاء طاهر وروايته البديعة "خالتي صفية والدير" ليس فقط لقدر كاتبها الأدبي، ولكن لأنها تواصل اللحن المصري الأساسي الداعي لوحدة الوطن بقوة واقتدار.

وتعكس رواية "كف مريم" لسعيد سالم الأزمة حين يعرض لنا التعصب الذي تعاني منه مريم في عملها، ومثلها مثل د. كرم دوس في"شيكاجو"تتعرض لتعطيل ترقيتها حتى

لتسأل نفسها:"أي وطن هذا الذي لا أستطيع الحصول فيه على حقي دون أن أريق ماء وجهي؟".

ويزحف التعصب الأسود إلى ما هو أكثر من ذلك حين يقتل "دانيال" شقيق مريم داخل صيدليته على أيدي مجرمين ملتحين، ارتكبوا جريمتهم وسرقوا أمواله من الخزينة. سمير زخاري القبطي المهاجر صديق مريم تحدث صراحة عن "الإرهابيين المصريين" الذين قتلوا صديق الدراسة فرج فودة، ويواصلون حملات القتل "ضد الأقباط أحيانا، وضد الأقباط والمسلمين أحيانا أخرى بلا أدنى تفرقة". إلا أن كف مريم تمتد في نهاية العمل إلى زميلها القديم

حليم صادق المسلم الذي استطاع بالحب أن ينتزع من قلبها الشوك الذي غرسته الفتنة والتعصب والعدوان) 16 (.

وبشكل عام يمكن القول إن الأدب المصري حيثما صور الأزمة كان ضميره في معظم ما يبدعه ينبض بحب مصر، والحرص الشديد على وحدتها، والقلق على مستقبلها، والدعوة لإنصاف الأقباط ووقف التمييز ضدهم. وفي هذا المجال تشغل رواية بهاء طاهر "خالتي صفية والدير" مكانة خاصة للغاية مستمدة من القدرة الأدبية التي لا نظير لها، ومن الضمير المرهف للروائي بهاء طاهر. وقد خرجت الرواية إلى النور عام 1991 ، وكانت من زاوية ما رد فعل على أحداث العنف التي تلاحقت أقباط ومسلمون

138

ما بين 1990 - 1980 خاصة في جنوب مصر. الرواية مقسمة إلى أربعة أجزاء بعناوين "المقدس بشاي"، و"خالتي صفية"،و"المطاريد" ثم "النكسة" وأخيرا "خاتمة") 17 (. وقد سعى الكاتب ونجح في أن يشعر القارئ عبر صفحات الرواية كلها بأن حياة المصريين واحدة سواء أكانت في بيت مسيحي أم مسلم، وأن اختلاف الدين لا يجعلنا مختلفين إلى درجة الصراع، لأن ما يجمعنا في الحياة أكثر بكثير وأقوى. وحتى

عندما يصف الكاتب "الجلايات" التي يعيش فيها الرهبان داخل الأديرة، فإنه يصفها بحيث تبدو قريبة للبيوت داخل القرية. وتدور أحداث الرواية في قرية صغيرة في صعيد مصر تقع بالقرب من أحد الأديرة القبطية. ويصف لنا الروائي الكبير في الفصل الأول"المقدس بشاي"حياة القرية والصلات الطيبة التي تربط ما بين أهلها، ويتذكر كيف كان ينتظر قدوم العيد ليحمل وهو صبي صغير الكعك إلى الدير، وكيف كان يلتقي هناك بالمقدس بشاي الذي يترك في نفس الصبي أثرا لا يمحى بمودته وطيبته. أما عن صفية، الشخصية الرئيسية، فإنها ليست خالة الراوي في الواقع، لكنها بنت خال أمه، إلا أنه اعتاد أن يناديها بقوله "خالتي صفية". هكذا يطرح بهاء منذ البداية وحدة تاريخ مصر، ثم يطرح صفية، والدير، كحقيقتين لابد أن تتعايشا في وئام وحب. صفية تحب حربي قريبها وتقول عنه إنه "مثل

فلق القمر"، وحربي يعشقها، والقرية كلها تعلم أن صفية لحربي، وحربي لصفية. إلا أن"البك"صاحب القصر يطلب صفية زوجة له، ولا يمكن رد طلبه. هكذا تنصاع صفية وتتزوج البك وتنجب له ابنه حسان. وتتحرك الوشاية لتلعب دورها حين يسمع

البك بأن حربي يخطط لقتل حسان، انتقاما من البك. وتتعقد الأحداث بحيث يجد حربي نفسه مرغما على قتل البك بالفعل، ومن ثم يتم سجنه. أما صفية التي كانت تعشق حربي، فإن الكراهية تشغل قلبها كله الآن، بل إنها لا شاغل لها سوى ترقب خروج حربي من السجن لتقتله هي، أو يقتله ابنها حسان. وعندما يخرج حربي من السجن، لا يجد ملاذا له سوى في الدير. وهنا يصبح الدير قائما على خط الاشتباك بين صفية وحربي. ويقول أحدهم لصفية: "إن خرج من الدير قتلناه، ولكننا لا نستطيع أن نقتله فى الدير.. حرام". ويكرر فارس زعيم المطاريد المعنى ذاته قائلا لحنين باستنكار: "تريدنى يا حنين أن أعتدي على الرهبان الذين أوصى عليهم ربنا سبحانه وتعالى في القرآن؟". ورغم أن أئمة المساجد كانوا يسبون الكاتب والرواية في خطب الجمعة حين تحولت لمسلسل تليفزيوني، إلا أن الرواية في واقع الأمر لم تتعرض بشكل مباشر للطائفية، إلا من زاوية نفيها لجذور الطائفية بالتأكيد على المحبة التي تجمع أهل القرية، وبأن أقباط ومسلمون

الدير كان يمثل فيما يمثل حماية لحربي المسلم، وفي ذلك المجال تحديدا نجح العمل في نقل رسالة حب

تبدد أجواء الظلام القاتمة، ومن هذا المنظور تحديدا، أي نقل رسالة تآخ، وليس عرض المشكلة، كانت جدة وعظمة رواية بهاء طاهر الذي طرح القضية من جانب آخر على نحو أدبي رائع لا يتأتى سوى لأديب كبير مثل بهاء طاهر.

141

ملحق

تواريخ أحداث لكي ننساها

142

143

الهوامش

-1 علاء الأسواني "شيكاجو" -دار شروق- القاهرة -الطبعة الأولى 2007

-2 علاء الأسواني "عمارة يعقوبيان" -مكتبة مدبولي- 2003

-3 علاء الأسواني -"نيران صديقة" دار ميريت -القاهرة- 2004

-4 الأسواني -"شيكاجو"ص 165

-5 الأسواني - المصدر السابق ص 164

-6 د. سيد حامد النساج"بانوراما الرواية العربية الحديثة"-دار المعارف – القاهرة 1980 –ص 24

-7 د. علي الراعي -"دراسات في الرواية المصرية". المؤسسة المصرية العامة – القاهرة – 1964

ص 106 - 105

-8 نجيب محفوظ -"السكرية" مكتبة مصر

-الطبعة الثالثة- 1961 ص 176

-9 نجيب محفوظ - المصدر نفسه -ص 174

-10 نجيب محفوظ - المصدر نفسه -ص 175

-11 نجيب محفوظ - المصدر نفسه -ص 176

-12 رؤوف مسعد حوار معه – 29 نوفمبر 2005

-شفاف الشرق- سامح سامي.

144

-13 فاروق خورشيد -وعلى الأرض السلام-

الهيئة المصرية العامة - 1984

-14 د. عبد المحسن طه بدر – تطور الرواية العربية

الحديثة في مصر 1938 - 1870 . دار االمعارف المصرية

– الطبعة الرابعة 1983 – ص 108 113 114

-15 زكي غربال زكي -اللوح المكسور- القاهرة

- الحضارة للنشر يوليو 2000 – ص 14 - 13 ، وص 19

-66- 20

-16 سعيد سالم -كف مريم- مطبوعات اتحاد

الكتاب المصريين 2001

-17 بهاء طاهر -خالتي صفية والدير- روايات

الهلال القاهرة 1991

يونيو 2007

145

الفهرس

1. 1 الباب المغلق

2. 2 سعاد التي في خاطري

3. 3 الأقباط.. التعليم والإعلام

4. 4 الدين والأدب

5. 5 الحوار المسيحي الإسلامي

6. 6 قصة الوشم.. الأقباط والأدب

7. 7 مكرم فهيم وأحزان بلدنا

8. 8 رحلة إلى مستقبلنا

9. 9 المسألة القبطية وما جرى في الإسكندرية

10 10 من أجل القرآن

11 11 الطريق للخروج من الأزمة

12 12 الطائفية إلى متى؟

13 13 الدولة والنزعة السحرية

14 14 جبهة إسلامية مسيحية

15 15 أيام عزبة واصف وأيام طه حسين!

16 16 وحش التمييز

17 17 الأزمة في الأدب المصري

18 18 ملحق: أحداث لكي ننساها

سيرة ذاتية

د. أحمد الخميسي . كاتب صحفي وقصاص مصري . مواليد القاهرة 1948 . حصل على دكتوراه في الأدب الروسي من جامعة موسكو عام 1992 . عضو نقابة الصحفيين واتحاد كتاب مصر . عمل في الصحافة بدءا من عام 1964 ، وظهرت قصصه القصيرة في العام ذاته في المجلات المصرية ، وقد مه الكاتب الكبير يوسف إدريس لمجلة الكاتب المصرية عام 1967. اعتقل في مظاهرات فبراير الطلابية عام 1968 ، وظل بالمعتقل لأكثر من عامين ونصف . سافر للدراسة في روسيا ، وعمل أثناء ذلك مراسلا صحفيا من موسكو لعدة صحف ومجلات عربية . حاليا متفرغ للعمل الصحفي والأدبي .

صدرت له الكتب التالية :

- "الأحلام ، الطيور الكرنفال " مجموعة قصصية عام 1967

- " معجم المصطلحات الأدبية " ترجمة عن الروسية عام 1984 - " المسألة اليهودية " للأديب العالمي دوستويفسكي - مجلة أدب وقد – العدد رقم 69 – مايو 1991 ، وأعادت مجلة " زرقاء اليمامة " عام 1996 نشر نفس الترجمة .

-" كان بكاؤك في الحلم مريرا " قصص عن الروسية عام 1985 .

-" قصص وقصائد للأطفال " ترجمة دمشق عام 1998 .

-" نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق " ترجمة وإعداد عام 1989 .

-" أسرار المباحثات العراقية السوفيتية في أزمة الخليج " ، تأليف وترجمة عام 1991 .

- " موسكو تعرف الدموع " دراسات القاهرة 1991 .

- " حرب الشيشان " 1996عن دار الاتحاد بالإمارات .

- " نساء الكرملين " 1997 .

-" رائحة الخبز " قصص مترجمة 1999.

- " قطعة ليل " مجموعة قصصية من تأليفه في يوليو 2004 عن دار ميريت بالقاهرة

***

- بريد إلكتروني /
Ahmad_alkhamisi@yahoo.com